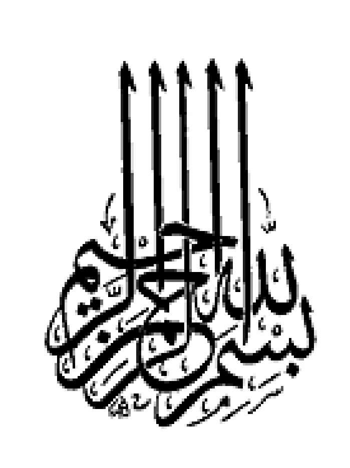
الغناء والموسيقى عند البدو



صالح زيادنة

موسوعة التراث الشعبي في النقب

الغناء والموسيقى عند البدو



الغناء والموسيقى

عند البدو

«توثيقٌ للغناءِ الشعبيّ والموسيقى في منطقةِ النقب»

صالح زيادنة

الغناء والموسيقى عند البدو

«توثيق للغناء الشعبي والموسيقى في النقب»

صالح زيادنة

الطبعة الأولى:

آذار ٢٠١١م – ربيع الثاني ١٤٣٢ هـ

تحرير وإخراج وغلاف: صالح زيادنة

طبع في: مطبعة الرابطة – الخليل

الإهداء

❁ - إلى كلّ الأهل والأبناء في ربوع النقب.

❁ - إلى كلّ من يعمل من أجل الحفاظ على الهوية.

❁ - إلى كلّ من يتمسك بجذور العروبة، ويجمع شتات التراث والأصالة، ويحفظ كنوز الآباء والأجداد.

❁ - إلى كلّ هؤلاء وإليكم أنتم أحبائي وقرائي الكرام أهدي هذا الكتاب.

صالح زيادنة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، النبيّ العربي الصادق الأمين، وعلى أصحابه الغُرّ الميامين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد:

إنَّ مجالَ التراثِ مجالٌ واسع، والبحث فيه يحتاج لجهدٍ وعملٍ متواصلين، وإنَّ عمليةَ الجمعِ والتوثيقِ تسيرُ ببطءٍ في هذه المنطقة، ورغم أن جهودنا متواضعة، إلاّ أننا نؤمن أنَّ ما نقوم به هو رسالةٌ مقدّسة وواجب وطنيّ يجب علينا القيام به، ومن أجل ذلك تظلّ عزيمتنا ثابتة، وجهودنا متواصلة، لا ننتظر تقديراً أو شكراً من أحد، لأن عملنا خالص لوجهه تعالى.

وإن موسيقى البادية هي جزء من هذا الإرث التراثي الثمين، الذي يحمل بين طيّاته ملامح حياة أهلنا ببساطتها وعفويتها وجمال لغتها وألفاظها.

ولا شكّ أنَّ لأهلنا في مجال الغناء والموسيقى أنغام وألحان تتلاءم مع طبيعتهم وبيئتهم الصحراوية التي يعيشون فيها، وإن كانت هذه الأنغام تتميّز بنبرة الحزن والأسى، والحنين واللوعة التي تُلازم أشعارهم وتنبثق من ألحانهم.

ومن يعش في الصحراء ويعرف طبيعتها يُدرك أن لها سحرها الخاص الذي يُكسِب أهلها تلك الخصال الحميدة والأخلاق السامية الرفيعة.

أما الآلات الموسيقية التي يعزفون عليها ألحانهم فهي آلات بدائية بسيطة، يصنعها البدويّ من جلد الماشية ومن سبيب الخيل؛ وهو الشعر الطويل الذي في

أسفل ذيولها، ويصنع بعضها الآخر من عيدان البوص الذي ينبت في الأودية وعند عيون الماء، حيث يسقي ماشيته ويستريح قيلولته ويغنّي ما طاب له من ألحان، وهذه الآلات على قلتها وبساطتها تكفي لتلبية احتياجاتهم في هذا المجال، ولا يحتاجون لأكثر منها في حالات الحلّ والترحال.

واستمراراً لجهودنا في جمع التراث وتوثيقه لهذا الجزء الغالي من الوطن، فها نحن نزفّ إليكم كتاباً آخر عن الغناء الشعبي بأنواعه، وعن الآلات الموسيقية التي استعملها الأهل في مناسباتهم المختلفة.

وقد سبق أن نُشر قسمٌ كبيرٌ من مادة هذا الكتاب في الصحف المحلية، وخاصةً صحيفة "أخبار النقب"، ومنها استقى كثير ممن تناولوا موضوع الغناء والموسيقى عند البدو في بحوثهم ودراساتهم، وهناك قسمٌ آخر يُنشر هنا لأوّل مرّة.

وختاماً آمل أن يكون هذا الكتاب مرجعاً لكلّ من يُحبّ تراث الأهل والأجداد وأن يكون خير مُعينٍ يستعينون به، وأن يسدَّ ثغرةً من ثغرات توثيق التراث في هذه المنطقة. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وهو نعم المولى ونعم النصير.

صالح زيادنة

رهط في: الجمعة، ١٨ آذار، ٢٠١١

الغناء الشعبي وأنواعه

لو أردنا تعريف الغناء لرأينا أنّه من الغُنَّة؛ وهي خروج الصوت بنغمةٍ مُرَخَّمة، تختلف عن نغمة الكلام العاديّ، والغناء صوتٌ مموسَقٌ تتردّد نبراتُه بأنغامٍ من عصارة الروح وأحاسيس النفس واختلاجات المشاعر.

وقد جاء الغناءُ ليعبّر عن حالات النفوس ومزاجها، فنراه تارةً يصدح بفرحة النفس وطربها وانتشائها ويعبّر عن غبطتها وسرورها، وتارةً أخرى يأتي بنغمةٍ تنطوي على الحزن والأسى، ليعبّر عمّا يجيش في النفس من لواعج الحزن والكآبة.

والغناء في الصحراء له ألحان متنوعة تفرضها البيئةُ الصحراوية من حيث النغمة واللحن، وتلوّنها الطبيعةُ بألوانها المختلفة التي تتلاءم مع تلك البيئة، وتتناسب مع ظروف العيش في الصحراء.

والغناء في المجتمع الصحراوي يُقسم إلى عدة أقسام؛ منها ما هو خاصّ بالرجال وهو أكثرها شيوعاً وانتشاراً وله ألوانه وأغراضه المختلفة، وقسم آخر خاصّ بالنساء، وهو يؤدّى في مناسبات الأفراح أو المناسبات الأخرى المشابهة، وأحياناً عند البئر عندما تلتقي واردات الماء ليملأن جرارهن، أو في المرعى حيث تلتقي الفتيات ويُغنين خلف قطعان الماشية.

أما الراعي فرفيقته الشبّابة التي ينفخ فيها ألحاناً من الدلعونا وظريف الطول وبعض الألحان الأخرى التي يطرب لها وينسى معها حَرّ الصحراء وهجيرها، والساعات الطوال التي يقضيها مع القطيع في المرعى.

وهذه الألحان أقل حزناً، لأن الراعي ليس لديه الوقت ليخلو بأحزانه بسبب يقظته للقطيع الذي يسرح معه ويرعاه، ومن هنا فإن الغناء على الشبابة لا يحمل في طياته أشجان النفس ولوعتها، بل هو لون للتسلية وقضاء الوقت حتى عودة القطيع للحظيرة مع ساعات الغروب.

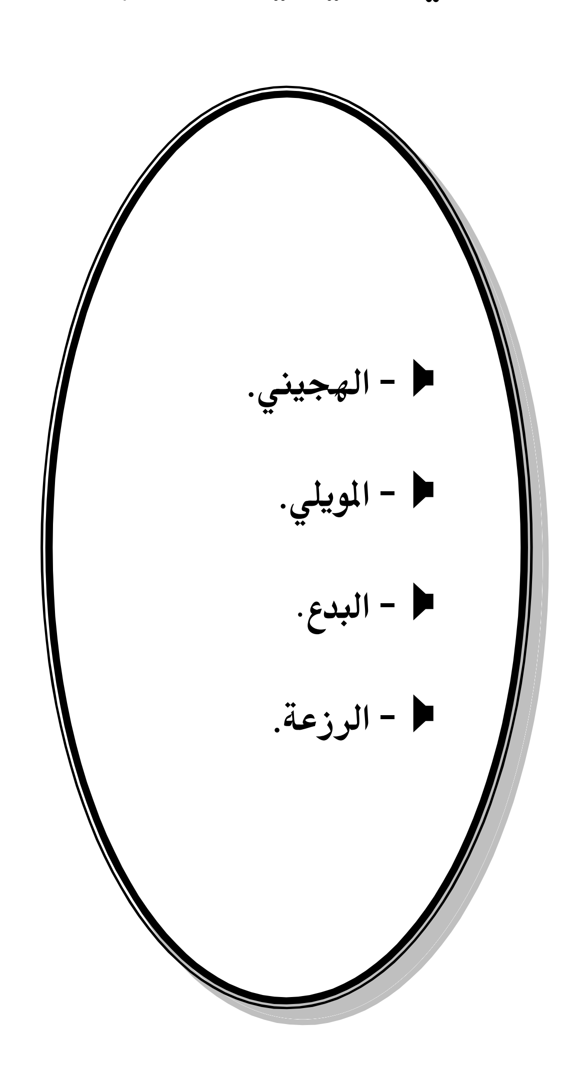
وهناك ألوان أخرى من الغناء يرتجلها البدويّ وهو على ظهر ناقته كالحداء والهجيني، وهي ألحان تتناغم مع سير الإبل ووقع خطواتها، فينسى معها المسافرون مشاقّ الطريق ووعثاء السفر.

وللأطفال كذلك بعض الأغاني الطفولية البريئة التي يُعبّرون فيها عن فرحتهم وغبطتهم بالمطر والشمس والقمر، أو يتندرون بها وهم يطاردون الطيور والعصافير، أو وهم يلعبون ويركضون في ساعات الضحى أو عند الغروب المساء.

إضافة إلى أنواع أخرى من الغناء تُغنّى في مناسباتٍ مختلفة سنتناولها بالتفصيل إن شاء الله في فصول هذا الكتاب مع كثيرٍ من النماذج والأمثلة التي جمعناها خلال سنواتٍ من البحث والاستقصاء من مقابلات مع كبار السنّ ممن عرفنا من رجالٍ ونساء، إضافة إلى معلوماتنا وما عرفناه وسمعناه خلال رحلة العمر ونحن نعيش في هذه الصحراء منذ الطفولة وحتى اليوم، وما دَوَّناه منها خلال السنوات الماضية في بطاقات أو ملفاتٍ أو تسجيلاتٍ صوتية جمعنا شتاتها ورتّبناها ونسّقناها لتكوّن فصول هذا الكتاب. وهدفنا خدمة الأبناء في نقل تراثنا الأصيل إليهم ليتوارثونه جيلاً بعد جيل، ولا يضيع تحت عجلات حضارةٍ ضررها أكثر من نفعها، سائلين المولى عزّ وجل أن يسدد خطانا ويوفقنا لما يحب ويرضى، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

الباب الأول

الأغاني الرئيسية عند البدو



١- الهجيني

هو لونٌ من ألوان الغناء الشعبيّ القديم الذي كان يردُّده المسافرون وهم على ظهور إبلهم وهجنهم يقطعون فيافي الصحراء ومسافاتها البعيدة في قوافل مختلفة، منها ما كَثُر عددها ومنها ما هو دون ذلك. وكان في غناء الهجيني ما يُخَفِّفُ وحشة الطريق وعناء السفر، ويحثّ الإبل على السير السريع فتمدّ أعناقها وتُتبعها قوائمها الأمامية ثم تُردفها بقوائمها الخلفية فتمشي وكأنها تعلو وتهبط، وكأنّ المغنّي يحسّ بهذا الارتفاع والهبوط فينطلق صوتُه ليتناغم مع سير الإبل وهي تتهادى في رمال الصحراء، فيعلو صوته تارةً وينخفض تارةً أخرى مع إيقاع أخفاف الإبل ووقع خطواتها.

وقد جاء اسم الهجيني من الهجين، وجمعه هِجْن: وهو الجمل الرشيق السريع المشي، الذي يُعَدّ من أجل السفر وقطع المسافات البعيدة. ومن لفظة الهجيني اشتقوا فِعلاً فقالوا: هَوْجَنَ، يُهَوْجِنُ هَوْجَنَةً؛ أي تغنّى بهذا النوع من الغناء.

وقد يشترك في غناء الهجيني شخصان أو أكثر، يردّ الواحد منهم على الآخر بأبياتٍ توحي له أبياتاً مشابهة أو ذات صلة فيطرب لها الرَّكْبُ المسافر وينسى همومَ السفر ووحشة الطريق.

وهذه نماذج من شعر الهجيني:

بأسْمَع نغِيط[1] القطا يـا عيَـال	ثِنْـتين سَــوَّن هجِينِيّــة
يا بنت لا توردِي سَيَّــال[2]	لا عاد ما أنتِ حويطيّـة[3]

* * *

يا طـير أنـا بـسألـك بـالله	بالصوت مـا شـفْت لـي نُـورَهْ
يـا عينهـا عيــن الغزيّــل	اللي عن الـوَكْر مقـصـورهْ[4]

* * *

يــا وَنّتــي وَنّــة[5] الجــالي	واللي جَلَى[6] مـن بـني عمّـه
العام مثل اليوم كنت أنا غالي	واليــوم أنــا مــاني بيمّـــه[7]

* * *

يا بنت يـا زينــة المنطـوق	يـا شَـمعة البيــت والعَيْلـة
القَرْن الأشقر حريـر الـسوق	والخــدّ يـضوي قناديلــه

* * *

(١) – النغيط: الصوت المرتفع، وهنا صوت القطا.

(٢) – توردي: تَرِدي. سيّال: اسم عين ماء قرب مقام لأحد الأولياء الصالحين قريب من البحر الميت.

(٣) – حويطية: من عائلة الحويطات.

(٤) – مقصورة: ممنوعة.

(٥) – الونّة: هي الأنين؛ وهو صوت التألّم والحزن.

(٦) – جلى: ارتحل وفارق الديار بسبب دم أو ثأر.

(٧) – ماني: ما أنا، لست. يمّه: قريب منه، بالقرب منه، وهي من يَمَّمَ نحو.

بالمَرْقَبَة[1] شفت أنا خدّه	بَرْقٍ لمع عُقب عِشْويّه
ومن حَطّني نايم بحدّه	راسي وراسه خلاويّه

* * *

يا ونتي ونّة الثنتين[2]	خَلَّن ولدهن بمفلاهن[3]
ولن اقبلن يزعقن صوتين	ولن بَرَكَنْ داروا اثْنَاهِنْ[4]

* * *

نتحسّب الله على الجَبْرَين[5]	يدعي مطرهم صلافيحِ[6]
عَيَّوا على سهَيِّف الذُّرْعَان[7]	نَومِي ونومه شَلاوِيحِ[8]

* * *

يا قلب يا اللي غدا قلبين	تفَرَّقن، وكيف نجمعهن
واحد يلقى طريق الزين	وواحد طريق البيض تابعهن

---

(١) – المَرْقَبَة: ج مَرَاقِب: المرآة.

(٢) – الثنتين: اثنتان من النوق.

(٣) – خَلّن: تركن. المفلى: مكان المرعى من الفلاة.

(٤) – بركت الناقة: ربضت. داروا اثناهن: أي عقلوهن بعد أن بركن وثنين قوائمهن.

(٥) – نتحسّب: ندعو بقولنا: حسبي الله ونعم الوكيل. الجَبْرَيْن: شخصان اسم الواحد منهما جبر، وهما كما يبدو حالا دون زواج الشاعر من المرأة التي يريدها.

(٦) – صلافيح: يقصد بها القليل الشحيح.

(٧) – سهيّف الذرعان: رقيق الأذرع.

(٨) – شلاويح: تعني هنا القلق وقلة الراحة.

طيري غدا يا سَلَق[١] وراح	لا يا حَلاتي لا يا طيري
شَوّحت[٢] له وابْعَد المشْواح	واثْرِيت[٣] عينه على غيري

* * *

يا ولد يا راكب الحنتور[٤]	يا اللي يهفّ الهوا هَفّي
سَلِّم على الصاحب المذكور	واسْمه مقَيَّد[٥] على كَفّي

* * *

يا أبو عيونٍ هَدْبهن سود	وتقول[٦] دواوير ساعاتِ
لن ما أعطوني رقيق العود	لأشرب من الهمّ كاساتِ

* * *

الهتْسِي[٧] اللي تبيعونه	بألفين ليرة ما هو بغالي
في أرض الحمادة[٨] حين ترخُونه	سيلٍ تحدّر[٩] من العالي

---

(١) – السَّلَق: الكلب السلوقي.

(٢) – شَوَّح: لوَّح وأشار بيده.

(٣) – اِثْرِيت، أو اثْرَات: وإذا ب.

(٤) – الحنتور: المركبة، السيارة.

(٥) – مقيّد: مسَجَل.

(٦) – وتقول: وكأنها.

(٧) – الهتسي: يقصد به السيارة الخصوصية، التاكسي.

(٨) – أرض الحمادة: هي الأرض المستوية السهلية.

(٩) – تحدّر: انحدر.

حسبي الله على النسوان هَرْج القفا[1] ما يخلّنه

هَرْج القفا عندهن ناموس[2] وإن كان قليل يزيدنّه

* * *

يا ولد يا راعي الحمرا وبتتلفّت علامَك[3]

وإن كان هواك الضِّيفة[4] أَرْع[5] العَرَب[6] قدّامك

* * *

والله لأسطِّر وامدّ حروف وأرسل سلامات للغالي

يا خوي لا تضيّع المعروف وتشمّت الخَلْق على حالي

* * *

حِسّ الكِمَنْكَر[7] دَرَج يا عيَال وتعَدّى بيوت الجهَالين[8]

حِسّ الكِمَنْكَر دَرَج يا عيَال[9] واثنين يردُّوا بعارين[10]

---

(١) – هرج القفا: النميمة.

(٢) – ناموس: عادة.

(٣) – علامك: ماذا بك.

(٤) – الضيفة: الضيافة.

(٥) – أَرع: ها هم.

(٦) – العرب: العربان، مضارب القبيلة.

(٧) – الكمكنر: سيارة جيب عسكرية.

(٨) – الجهالين: عائلات بدوية تعيش بالقرب من القدس.

(٩) – يا عيال: يا قوم.

(١٠) – بعارين: جمع بعير وهو الجمل البالغ.

٢- المويلي

يبدو لي أن لفظة المويلي مشتقة من المَوَيِّل؛ وهو تصغير للموّال بلهجة أهل البادية، وذلك أن هذا اللحن أشبه ما يكون بالموّال، حيث تُمَدّ فيه النغمة بشكلٍ كبير تجعلها قريبةً من مخرج صوت الموّال، وإن كان من حيث التركيب أقرب ما يكون إلى الهجيني ولكنه أقصر منه نغمةً وأسرع إيقاعاً، وهو من الألحان الأصلية التي يعتبرها البدو أصل الغناء عندهم، والتي تتركّز في الهجيني والمويلي والرِّزْعة والبَدْع، أما الأنواع الأخرى من الغناء فهي أقل شهرة من هذه الأنواع المذكورة وأقل انتشاراً بين الأوساط الشعبية.

وأغراض غناء المويلي تشابه أغراض الهجيني وكأنهما شقيقان جاءا من حنجرةٍ واحدة، فنرى فيه ذِكر السّفَر والإبل والحنين والغَزَل وما شابه، وهو بذلك لا يقتصر على المناسبات الخاصة كما هو الحال مع البَدْع أو الرِّزْعة.

وهذه نماذج من غناء المويلي:

بيـــر زمـــزم عليــه	حـــارسٍ مـــا ينـــام
والركايــــب عليــــه	مثــــل رَفّ الحمَــــام

***

رُدِّي عَلَــيّ يـا يُمَّـه	وأنـا عليكــي بنــادي
وأنـا في بــلاد الغُربــة	وأنــتِ في حَــيّ بــلادي

***

راعـــي الذلــول[1] الحمـرا　　　غَــرَّب يــا زيــن شــدَادِه[2]

يــا أبــوي أعطـيني الحـُرّة　　　خلّـــيني ألحــــق بـــلاده

***

حِنِّـــي حنينــــك كُلّـــه　　　لا تبخلــــي يـــا ناقــــةْ

وأنــتِ بتحِنِّــي ع البــلّ[3]　　　وأنـــا علــــى الرِّفاقــــةْ

***

زَامَـــتْ[4] علـــيَّ كبـــدي　　　مِـــنْ جَمَّـــتْ الهَرَابَــــة

عـيني ترعـى علـى وضحا　　　عَيَّـــت[5] عـــن القَرَابَـــة

***

واشــرِف عَ راس المرْقَــاب　　　وأشَـــوِّح لَلِّـــي قبـــالي

وأشَــوِّح لــك يــا خَيِّـــي　　　وأنـــت العزيـــز الغـــالي

***

(١) – الذلول: الجمل السريع.

(٢) – الشداد: ما يوضع على ظهر البعير كالسرج للحصان.

(٣) – البلّ: الإبل.

(٤) – زامت: جاشت.

(٥) – عيَّت: لم تقبل ب. رفضت.

ريحة حَطَبْكُـو[1] ع النـار	سُـــكَّر طحـــين رْحَـــاكُو[2]
يــا اللـــي ولــدكو عَـــوَّاد	كيـــف القلـــب ينـــساكو

* * *

عَـــلاَم عَرَبْنَـــا شَـــالَتْ[3]	غِـــدْيتْ ثـــلاَت نْجُـــوعِي[4]
يَـــا مِـــنْ يهَجِّـــعْ[5] قَلْبِـــي	يَـــا مِـــنْ يمِـــشّ[6] دْمُـــوعِي

* * *



(١) – حطبكو: حطبكم.

(٢) – رحاكو: رحاكم.

(٣) – شالت: رحلت.

(٤) – غِدْيَت: غدت، أصبحت. نجوع: فِرَق.

(٥) – يُهَجّع: يهدّىء.

(٦) – يمشّ: يمسح.

٣- البَـدْع والدحيّة

البَدْع هو نوعٌ من الشعر الارتجالي المبني على الجُمَل القصيرة والسَّجْع، والذي يُلقى ويُغَنّى في سامر الأعراس، حيث تُقام الحفلات ويتحاور فيه عددٌ من الشعراء الذين لهم باعٌ طويلة في ارتجال البَدْع أو هذا النوع من الشعر، وإذا ما نبا بأحدهم لسانه بكلمة لا تروق للبدّاع الآخر فحينها يبدأ التراشق بالكلام، وقد يصل الحال إلى إقذاع القول أو ربما إلى المشاجرة، ولكن ذلك ليس في كلّ الحالات، فسرعان ما يتصالح البدّاعون وتعود المياه إلى مجاريها، ويظل البَدْعُ ذلك اللون الشعريّ الخاص المتميز الذي نسمعه في الأعراس وفي المناسبات السعيدة، ويظل اسمه مقترناً بهذه المناسبات في الذاكرة الشعبية مهما قَسَت الظروف وتغيّرت الأحوال.

وهذه نماذج من شعر البَدْع الذي يعتمد البيت الواحد:

رَبْعِي يا عْصَابة راسي	حالي بلاكم زريّة[1]
ربُوعِي كلهم نشامى	ما فيهم حوفة رديّة[2]
خُذْ لك كلامْ حلو وتمام	والعاطِل رُدّه عَلَيَّهْ
ارتاح وريِّحْ جوادك	دِرّ الثقايل[3] عَلَيَّهْ

(١) – زريّة: يرثى لها.

(٢) – حوفة ردية: عادة سيئة.

(٣) – دَرّ: نقل، حوَّل. الثقايل: الأمور الصعبة الثقيلة.

الرجــل مــن دون رجالــه	مــا يــسوى كلّــه ســويّه
الرجــل مــن دون رجالــه	تاكــل عَــشَاه الواويّــة[1]
والرجـل مـا بـين رجالــه	يــضرب بــالعين القويــة
أنــا بَــدَّاع وأبــوي بَــدَّاع	وأمــي رقَّاصــة نِــشْمِيّة
مبَــارَك فَرْحَـك يـا مفَـرِّح	والعُقْبَــى لخيَّــه[2] زَيَّــه
واطلــب مــن ربّــي يــتمّم	بالــــذرا والذريـــــة

وهذا نموذج آخر من البَدْع المربوع:

خَــدّه فَــانُوس بالــسُّوقِ	يلمـــع ليـــع البـــروقِ
يــا ويلــي قلــبي مَحْــروق	مـن هَـوَى البنـت النِّـشْمِيّةْ

***

لأبكِــي عليهــا بالليــلِ	والقلــب طــاير جفيلــي
وإن ما صَـفَتْ لـي يـا ويلـي	مـن بعــده حـالي ضـنِيّةْ

***

(١) – الواوية: الأنثى من بنات آوى.

(٢) – لخيّه: إلى أخيه.

الدِّحيّة

الدِّحيّة هي حفلة من الرقص يشترك فيها عدد من الرجال قد يصل عددهم عشرة أو حتى عشرين وأكثر، يصطفون بجانب بعضهم البعض ويبدأون بالرقص، ثم تخرج امرأة مقنَّعة لا يظهر من ملامحها أي شيء وفي يدها سيف وتأخذ ترقص بينهم وتسمى هذه الراقصة بـ"الحاشي"، وعندما تبدأ في الرقص بينهم يدبّ الحماس في الرجال ويحاولون الاقتراب منها وتضييق الحلقة عليها وهم يتشابكون الأيدي فتردهم بالسيف الذي في يدها، فيخبطون بأرجلهم ويصفقون بأيديهم ويرددون لازمة مكررة يقولون فيها: «حِي حي يُوه، حِي حِي يُوه»، وهم يرددون هذه الجملة بحماسٍ تام بينما تكون أعينهم تتجه صوب المرأة التي ترقص بينهم، وما زالت كثير من العائلات تقيم حفلات الدحية في أعراسها، بينما أبطلتها عائلاتٌ أخرى منذ فترة بعيدة.

أما شعراء البدع فيجدون الفرصة مواتية ليتحاورون ويُظهر كلّ واحدٍ منهم مقدرته البلاغية في التعابير الجميلة والتشابيه العجيبة، وشعرهم جميعه ارتجالي إلا ما حفظته الذاكرة ووعاه الوجدان من أبياتٍ معروفة يعرفها الكثير فيزيدون عليها ما يجعلها تتناسب مع تلك الأمسية، ومن أشعارهم وبَدْعِهم في ذلك:

الله يمسيكم بالخير، ضيوفٍ مع محليّة[1]

هذا بيت المفَرِّح[2]، والراية ترفرف فوقيّه

---

(١) – المحلِّي، وجمعه محليّة: هو الشخص من أهل البيت من غير الضيوف.

(٢) – المفرِّح: صاحب العرس.

هـــذا بيـــت المفـــرِّح، أرعـــي[1] البكـــارج مغليـــة

يـــا أبـــو محمـــد شِـــدّ الهمـــايم، عَـــسَى الهمـــايم قويّـــة

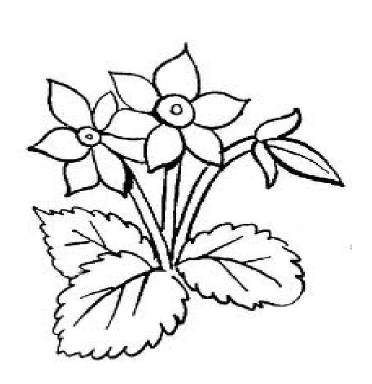
في فرحـــك والله يـــا غـــالي، لاغنِّـــي وارمـــي الطاقيـــة

في فرحـك والله يـا غـالي، لأهـريكن[2] يـا كفـوف ايديـه

يـا بيـضة خِفّـي قـدمكِي، واحتزمـي إن كنـتِ رفاليّـة[3]

يـــا بيـــضا ظُبِّـــي ذهبكـــي، في العتمـــة يـــشلع ضـــويّة[4]

مَـسِّيك بـالخير يـا لاقـي خـير، مـدّ ايـدك سَـلِّم عليّـه



(١) – أرْعِي: ها هي.

(٢) – هَرَى، يهري: قطّع من شدة الاستعمال.

(٣) – احتزم: لبس حزاماً. الرفالي: هو الذي يلبس الثوب دون حزام.

(٤) – البيضا: هي البيضاء من النساء، ظبَّ: خبأ. يشلع ضويه: يلمع ضوءه ونوره.

٤ - الرّزْعة

الرَّزْع أو الرِّزْعة، وجمعها رزَازِيع؛ هي لونٌ آخر من ألوان الشعر الارتجالي الـذي يعتمده أهلُ البادية ويغنّونـه في مناسـباتهم المختلفـة وينتـشر بـين أوسـاطهم بـشكلٍ كبير، وشعر الرِّزْعَة يُشبه البَدْع، ولكنه يختلف عنه في النغمة واللحن، فهـو أطـول نفساً وأرقّ نغمة وأصفى جَرْسَاً ووقعاً على النفس، وهو وإن كـان يُغنّـى في مناسـبات السَّمَر والأعْرَاس شأنه في ذلك شأن البَدْع، إلا أنه يمكن أن يَتَغَنَّـى بـه الراعـي وهـو يرعى مع قطيعه، أو ربما يُسلّي به أيّ شخصٍ نفسه وهو في بيتـه، ومـن هنـا كـان انتشاره أكثر من البَدْع، وكثـيراً ما يتبارز فيه شاعران أو أكثـر فنرى ألوانـاً مختلفـة من البلاغة الشعبية والتشابيه اللفظية الجميلة.

ولهذا الشعر أغراضٌ مختلفة كأغراض الـشعر الفـصيح، ولكـن يغلـب عليـه طـابع الغزَل، والتشبيب بجمال المرأة، والشكوى مـن بُعـدها ومـا شـابه ذلـك، إضـافةً إلى الألوان الأخرى التي يتناولها الشعر على أنواعه.

ومن لفظة الرِّزعة اشتقوا فعلاً فقالوا: رَزَعَ يَـرْزَعُ رَزْعَـاً أو رِزْعَـةً؛ أي تغنّـى بهـذا النوع من الغناء.

وقد ذكرت الأمثال الشعبية الرِّزْعة في عدة أمثال منها: «**العِرْس في عَمُّورية وأهل البريج بيَرْزَعَوْا**». ونستشفّ مـن هـذا المثـل أنّ الرِّزْعـة كانـت تُغنّـى في الأعـراس، وهناك مثل آخر يُحبّب تزويج الفتاة من أقاربهـا حتـى يظـلّ أولادُهـا داخـل نطـاق القبيلة يقـول: «وَلَدها في الفَزْعِة وبِنْتها في الرَّزْعِة».

وهذه نماذج مختارة من شعر الرّزْعِة:

صَــبحَكْ بــالخير يــا راعــي الغَــنَم يــا زيـــن
خِتْيَــار تَلْفَــان، عَلِّمْنِــي العَــرَب مِــنْ ويـــن[1]

***

مَـــسِّيكْ بـــالخير مَـــسِّي سَـــاق طَرْبُوشَـــكْ
يــا اللــي الحريــر شَــوَّكَك[2] واش حــال ملبوسـك

***

قاعـد علــى القــوز[3] مــن تحتــه قنــاة بتجــري
يــا شِــين[4] صَــادَوْا غَزَالَــكْ وَانْــت مَــا بتــدْرِي

***

عَلّيتْنِــي[5] يــا قلــب مــن كثــرة مواجيعــك
والنــاس مــا هــم ســوى، وَكِّــدْ[6] في أصــابيعك

***

والله لأَعَلّمــــكْ، مَـــانِي عَلِيـــك جَاحِـــــد
قلـــبي وقلبـــك ســـوى، ومفتـــاحهنْ واحـــــد

---

(١) – ختيار: شيخ كبير السن. تلفان: تَعِب. علمني: أخبرني.
(٢) – شَوّكَك: وخزك كوخز الشوك.
(٣) – القوز: مرتفع من الأرض.
(٤) – شين: قبيح، عكس زين.
(٥) – عليتني: أصبتني بالعلل.
(٦) – وكّد: انظر.

يــا اللــي غَنَمْكُــو دبيلــة[١] أصــبحتْ شَاتَيـــنْ
وان جِيتْكُــو ضَــيف تــسْقُوني لــبَن مِــنْ ويـــن

* * *

يـــا مَــــارق الـــدَّرْب، سَلِّـــم علـــى عَـــوَّاد
والهَــرْج[٢] لحــق الـشَّنَب[٣]، مَـا هُـو كــلام أولاد

* * *

يـــا حلـــو يـــا زيـــن لا تاخـــذْ علـــى بَالَـــكْ
بَــاكِر تــشِيل[٤] العَــرَب، وبــنحُطّ في جَالـــكْ[٥]

* * *

يـــا حلـــو يـــا زيـــن مكتوبـــك لفَـــى مَعْنَـــا
يُومِـــــنْ قَرَيْـــتْ الـــوَرَق سَــــالَنْ مدامعنـــــا

* * *

يـا بنـت يـا صـغيّرة، يـا أخـت الـصبي سـلمان
حِلِّـــي ازْرَار الـــوَطَى[٦] وامـــشي مـــع الـــسلطان

---

(١) – دبيلة: كثيرة.

(٢) – الهرج: الكلام.

(٣) – لحق: وصل. الشنب: شارب الرجل.

(٤) – تشيل: ترحل.

(٥) – نحط في جالك: نسكن ناحيتكم وبجواركم.

(٦) – ازرار الوطى: رباط الحذاء.

الطُّــول طُــول شِــبْرين، والخِلْقــة تَعَاجِيبــه
والله لألفّــكِ في المَحْرَمــة[1] وأحُطّــكِ في الجِيبــة

* * *

صَــبّحَكْ بــالخير يــا راعــي جَمَــل وحــصَانْ
وإنْ جِيتنــا ضَــيف، تَلْقَــى اللَّــبَن غُــدْرَانْ

* * *

يــا حلــو يــا زيــن لا تــورد علــى مَانَــا[2]
مــن شَوفَــة الزِّيــن، تــتفَطَّط شَلايَانَــا[3]

* * *

يـــا وارد البيـــر واسْقِينِـــي بحَفْنَاتَـــكْ
عطــشان مــا بــي ظَمَــا، ودِّي[4] محَاكَاتَــكْ

* * *

الــزين زي الــذهب، كُــلّ النــاس بتريــده
والكــلّ في خاطــره يكْــبش[5] ويــدِبّ ايــده[6]

---

(١) – المحرمة: المنديل الصغير.

(٢) – مانا: ماؤنا، البئر التي نستقي منها.

(٣) – تتفطَّط: تتناثر. شلايانا: مواشينا.

(٤) – ودّي: أريد.

(٥) – يكبش: يدفع يده ويملأها.

(٦) – يدب ايده: يملأ يده.

الحلـــو في أوّل زمانــــه، الكُــلّ بيريـــده
واليـــوم عفريـــت، نَاقِــل عَيِّلــهْ[1] في ايـــده

* * *

عَزَبَــاتْ[2] في بَرْبَــرَة[3] كُــلَّ أربعـــة برْيَـــالْ
يــا نَــاس رُبْــع المَجِيــدِي[4] بيجَـــوِّز الرَّجَّـــال

* * *

شـــجرة قرنفــــل هَدْبَلَـــتْ[5] عَ البيـــت
لِـــمّ الحبايـــب يَحْـــضرن هالقيـــت[6]

* * *

شـــجرة قرنفــــل هَدْبَلَـــتْ عَ الرُّفَّـــة[7]
لِـــمّ الحبايـــب يَحْـــضرن هالزفّـــة

* * *

ســـلَّم عَلَـــيّ بأربعـــة والخامـــسة الـــشاهد

---

(١) – العيّل: الطفل الصغير.
(٢) – العَزَبَة: المرأة المطلقة أو المتوفى زوجها.
(٣) – بربرة: قرية فلسطينية مهجرة.
(٤) – ربع المجيدي: عملة تركية.
(٥) – هدبلت: تدلت أغصانها للأسفل وغطت ما تحتها.
(٦) – هالقيت: هذا الوقت.
(٧) – الرفّة: آخر بيت الشعر من الجهة الجنوبية، وهو بمثابة مكان للطهي وإعداد الطعام.

روحـــي وروحـــك ســـوا ومفتـــاحهن واحـــد

***

عَ اليـــوم يـــا سِـــتّ لـــو في مثلـــكِ ســـتّة

والـــزين زي الـــذهب بينبـــاع بالحِتّـــة[1]

***

مـا أحـسن خيالـك ومـا أحلـى سَـبْلة عيونـك[2]

مِرْخِـي سناســل ذهــب مــع جَدْلــة قْرُونــك

***

واللـــي صـــلاته قليلـــة ليلتـــه ســـودة

والقـــبر مفتـــوح والـــدبّوس[3] مركـــودة[4]

***

عَ اليـوم يـا زِيـن لَنَّـك علـى الرِّفَـق بتْـدُوم

لأغُـــزّ رايـــات وابـــني في الحَمَـــاد[5] رجُـــوم

***

(١) – الحتة: القطعة الصغيرة.

(٢) – سَبْلة عيونك: اغماضة عينيك.

(٣) – الدبوس: العصا الغليظة.

(٤) – مركودة: موضوعة وموجودة.

(٥) – الحَمَاد: الأرض السهلة المستوية.

تَمّيــــت أناديـــــك وأحُـــــطّ الــــبَلَح في ايــــدَكْ
علـــيش يـــا زيـــن تكْرَهْنِـــي وأنـــا أرِيـــدَك

* * *

يـــا نجمـــتين اشْـــهَدَن شُـــوفَن مَنَامـــه ويـــن
ملفـــوف في ملايتـــه[1] لَـــفّ القمـــر في الغـــين[2]

* * *

يـــا نجمـــة الـــصُّبْح لُـــوحِي بـــالعَلاَم[3] لُـــوحي
شَـــيّعْت[4] مَكْتُـــوب للغـــالي طَلَـــب رُوحـــي

* * *

مـــا ابطِّـــل الـــوَنّ[5] لَنِّـــي[6] عَ الـــنَّعَش مَمْـــدُود
صَـــيُّور[7] العظـــم يبلـــى أمـــا اللحـــم للـــدود

* * *

(١) – ملايته: ملاءته.

(٢) – الغين: الغيوم.

(٣) – العلام: نور الفجر.

(٤) – شيّع: بعث، أرسل.

(٥) – الوَنّ: الأنين.

(٦) – لنّي: لو أني.

(٧) – صيّور: مصير. مآل.

سَــــلِّم بعينـــك وخَلِّـــي ايـــدك بحنّاهـــا
شـــوحِة[1] يمينـــك تـــرُدّ الـــروح مجراهـــا

* * *

اللـــي زَرَع زَرْعتـــه بـــين الحَطَـــب والهِـــيش[2]
تَطْـــرَح[3] ذوانِـــين[4] حتـــى انَّ الفقـــير يعـــيش

* * *

يـــا ريـــح هِـــزّ النخـــل، خَلّـــي الجريـــد أكـــوام
يـــا بُعْرَانّـــا مخـــاليف، مـــا ذاقـــن ربيـــع العـــام

* * *

يـــا مَقْعَـــد الـــزين في البُـــورَة نَبَـــت نُـــوَّار
وندَقْـــدِق الكُحْـــل ويجينـــا مـــع العَطَّـــار

* * *

طولـــك قـــصب مَـــصّ ومـــن شـــافك نـــسي حالـــه
واللـــي شـــبع مـــن رفقكـــم يـــا هنيالـــه

* * *

(١) – الشوحة: التلويح باليد.

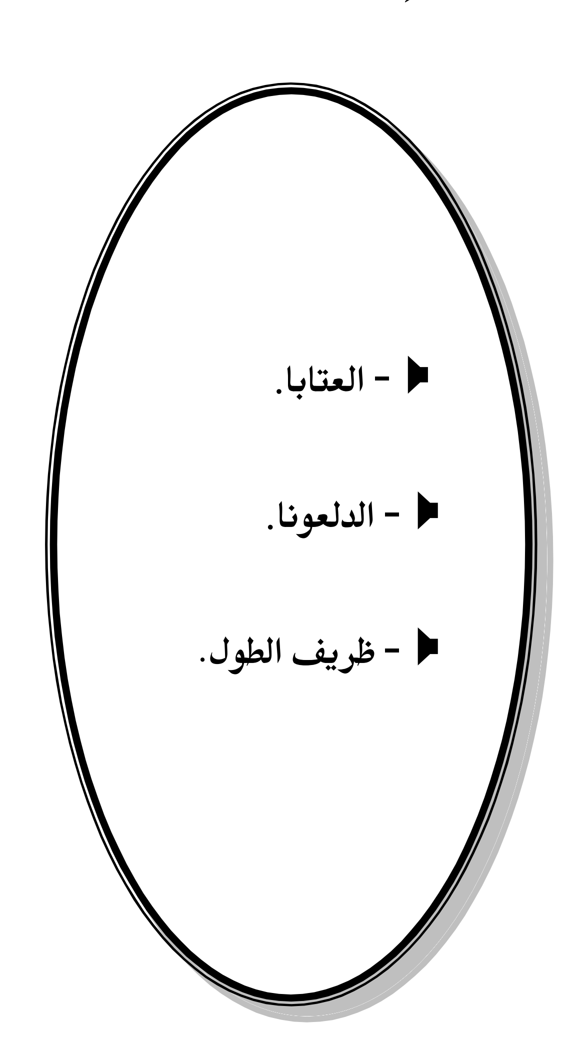
(٢) – الهيش: العشب الكثيف اليابس.

(٣) – تطرح: تثمر.

(٤) – الذانون، وجمعه ذوانين: نوع من العشب الذي ينبت في الربيع.

الباب الثاني

أغانٍ ومواويل أخرى



أغانٍ ومواويل أخرى

هناك أنواع أخرى من الغناء كانت معروفةً لدى البدو، ولكنها لم تكن من تراثهم الحقيقي بل هي أغانٍ ومواويل دخيلة من القرى والبلدان المجاورة لهم، وقد استطاعت هذه الأغاني أن تفرض نفسَها وخاصةً المواويل منها كموال العتابا الذي ينطوي على نغمة حزنٍ وجدت مكاناً لها في نفس البدويّ القريبة من الحزن بطبيعتها، فأصبح يُردّد هذه المواويل طويلاً حتى كثرت وشاعت وأصبحت جزءً من الأغاني التي يردّدها ويغنيها في مناسباته المختلفة.

أما الدلعونا فهي لحن الشبَّابة، ذلك اللحن الذي تستطيع الشبَّابة أن تؤديه بشكلٍ جيد، فكثر ترديده بين الرعاة وفي حلقات السمر في الأعراس والمناسبات المختلفة، والتصق هذا اللحن بالذاكرة الشعبية حتى أصبح مألوفاً، أما ظريف الطول فلم ينل تلك الشهرة التي نالها سابقاه من العتابا والدلعونا، وذلك لأنه لون خافت وهادئ وليس فيه لوعة وحزن فظلّ أقل انتشاراً من سابقَيه وإن كان معروفاً في الأوساط الشعبية، ومن هنا نرى أن الأغاني الدخيلة استطاعت أن تَشُقَّ طريقها إلى قلب البدويّ، وتجعله يفتتن بها وبلحنها ويردِّدها في مناسباته المختلفة، ويُعبّر بها عما يعتلج في نفسه من أحاسيس ومشاعر، ونحن هنا نأتي ببعض النماذج منها، ونبدأ بأشهرها وهو موّال العتابا:

١ - العَتَابا

العتابا لونٌ من ألوان الموّال الشعبي والغناء الوجداني الذي يتغنّى به الرجال في مناسباتهم وظروفهم المختلفة، وفيه تعبيرٌ صادقٌ عن الإحساس والمشاعر وشكوى الزمان ولوعة الحرمان وغيرها من المواضيع التي يتعرّض لها الإنسان في رحلة حياته، فنجد الناس في مجالس سمرهم يُغنُّون العتابا، وفي أوقات عملهم يتسلّون بموّال العتابا ليخفّفوا به من عناء العمل وما يرافقه من التعب والإرهاق، وحتى في أوقات الراحة والاسترخاء يتغنّون بهذا الموّال، وربما اختاروا مقطوعاتٍ بعينها ليعبِّروا بها عن الوضع الذي يَمُرّون به والظروف التي يعيشونها.

ويتركّب بيت العتابا من بيتين، أو من أربعة أشطر، على أن تكون نهاية الأشطر الأول والثاني والثالث قائمة على جِنَاسٍ واحد وتلاعبٍ لفظيّ، ولعلّ هذا الأمر من أهم القواعد التي يسير عليها هذا اللون من الغناء، بينما يلتزم الشطر الرابع قافيةً أخرى مغايرة، غالباً ما تكون على حرف الباء وتُمَدّ فتسمع وكأنّ في آخرها لازمة "آبا" المأخوذة من كلمة عتابا، ويُمَهَّد أحياناً لموّال العتابا بكلمة (أوف)، ويتفنّن المغنِّي في تمديد وتمويج صوته حسب قدراته الفنية لينطلق بعدها بموال العتابا.

ويذكر البعض أن كلمة عتابا مشتقة من العِتَاب الذي يكثر في هذا النوع من الغناء، ويقال إنه نشأ زمن العباسيين حيث أُطلق على بعض الأشعار التي غنتها جارية البرامكة عندما نَكَّلَ بهم هارون الرشيد، ولكن يبدو لي أنَّ كلمة عتابا مشتقة من اسم فتاة ربما كانت تدعى "عِتَاب" وقد أحبها شاعر يبدو أن اسمه محمد العابد، وتغنّى بها كثيراً في شعره ومواويله، وكثيراً ما يعاتبها على صدّها له وبُعدها وهجرانها عنه، فنجده يقول:

يقــــول محمـــــد العابـــــد يـــا لابـــــد

وعزراييـــــــن جُــــوّا القبـــــر لابـــــد

بُكْـــرَة تمـــوت يـــا محمّـــد العابـــد

وبعـــــدك ميــــــن يغنّـــــي في عتابـــــا

والأمثلة كثيرة تجدها ضمن هذه النماذج التي نسوقها هنا من شعر العتابا:

عتابـــــا عاتَبَتْنِــــــي وأنــــــا صْغِيــــــر

وهَـــدّتْ حـــيط بُنيـــاني وأنـــا صْغِيــــر

رَبِّـــــي لا تْمَوّتْنِـــــي وأنـــــا صْـــغِير

لمـــــا أَشِـــــيب والظَّهْـــــر انْحَنـــــى

* * *

أنـــا كنـــت صْـــغِير واتْـــدَلَّل عَ بيِّـــي

ولَمَـــا كْبِـــرْت لَبَّـــسْنِي عبَيَّـــه[1]

ولَمّــــــنِّي ركبـــــتْ العْبَيِّــــــه[2]

اهتَـــــزّ الجبَـــــل وبَيّـــــي مَـــــشَى

* * *

أنـــا لأبكـــي علـــيهم طُـــول عُمـــري

(١) – عبية: تصغير عباءة.

(٢) – العبية: نوع من الخيول.

عَ اللـــي مـــا أزعلـــوني بطُـــول عمـــري
وإن طـــــالَ الزمــــان وطــــالَ عُمـــــري
لأجعـــــل عيـــــشتي نـــــوح وبكـــــا

* * *

شـــربنا كـــاس مُـــرّ وكـــاس تَـــفْ ريـــقْ
وقَـــــدّر المـــــولى علينـــــا بتفريـــــقْ
يـــوم فـــراحهم حَـــرّ ونِـــشَاف رِيـــقْ
ويـــــوم فـــــراقهم مَقْـــــت وغَثَـــــى[1]

* * *

ثلاثـــــة والثلاثـــــة طُـــــول واحـــــد
وخَـــــلاّق المَبَاسِـــــم رَبّ واحـــــد
وواحـــــدْ بالـــــسَّمَا والـــــرَّبّ واحـــــد
وواحـــــد يـــــوم حَاشِـــــر واللقـــــى

* * *

جْمَـــال مْحَمَّلَـــةْ وجْـــرَاسْ بِتْـــرِنّ
ليـــالي مَـــضَتْ عَ البَـــال بِتْعِـــنّ[2]
حَمَلْـــتْ بْـــضَاعْتِي ودُرْتَ أنـــا أعِـــنْ

---

(١) – الغثى: المقت والحزن.

(٢) – تعنّ: تعود بذكراها.

غَرِيــــب ومـــا حَـــدَا مِنِّـــي اشـــترى

***

صـــــباح الخـــــير صَابَحْتـــــــه ولا رَدّ

وعَاتَبْتـــــــــــه بزَلاَّتـــــــــه ولا رَدّ

ريـــت اللـــي يحْـــرم الرَّايـــد مـــن الـــرَّدَ

يمـــــوت وخَـــــاطْره شَـــــمّ الهـــــوا

***

أنـــا لأبْكِـــي علـــى حَـــالِي وأنـــا حَـــيْ

يـــا نَفْـــسِي عَافَـــت المَطْبُـــوخ والنَّـــيْ

صَـــدِيقٍ مـــا يوَاسِـــينِي وَأنـــا حَـــيْ

شـــو بـــدِّي بيـــه يـــوم هَـــيْلات التّـــراب

***

جَمَـــل جَـــابوك للقَلْعَـــة ونَـــاخوكْ[1]

وحَطُّـــوا العُقْـــل[2] في ذرَاعـــكْ ونَـــاخوكْ

ولـــيش مـــا جِيتنـــي وأنـــا أَخُـــوك

أنـــا شَيَّـــال حِمْلـــك والـــصّعَاب

***

---

(١) – ناخوك: أناخوك.

(٢) – العُقْل: العِقَال: وهو الحبل يُعقل به البعير.

أنـــا لأَشِــدّ مَـــاكِن فـــوق مَـــاكِنْ
ذَلُـــول مطَبَّـــعَة وشْـــدَاد[1] مَـــاكِن
ســـألت الـــوَاردَات مـــنين مَـــاكِن
قـــالن لـــي قَطِيـــف مـــن النَّـــدَى

* * *

ثـــلاث غـــزلان يَـــرْعَنْ في حَـــبَلْهِنْ[2]
سَـــلَنْ عَقْلـــي وحتـــى الـــروح معهـــن
أنـــا لأشـــلح ثيـــابي وأســـوح معهـــن
وأجعـــل مونتـــي عـــشب الخـــلا

* * *

حَـــسَن يـــا ســـايق البَكْـــرَة[3] والقعُـــود
وعنـــدك طابَـــت العِـــشْرة والقعـــود
متـــى يـــا حلـــو نـــتلملم ونقعـــد
ونتْحَـــرَّى[4] الليالـــي اللـــي مـــضى

* * *

(١) – الشِّداد: ما يوضع على ظهر البعير كالسرج للفرس.

(٢) – الحَبَلَة: القطعة من الأرض.

(٣) – البَكْرَة: الناقة الفتية. القعود: الجمل.

(٤) – نتحّرى: نتذكّر.

علـــى بـــير الــصَّفا وردت حليمـــة

جـــدايل سُـــود أرختهـــن حليمـــة

رُوحَـــن يـــا شُـــقُر مـــا انتـــنش غنيمـــة

حليمـــة ســـهيل ونجـــوم الـــضحا

* * *

علـــينا مـــا علـــينا ومـــا علينـــا

وَقِيَّـــة[1] شـــحم مـــا ظلَّـــت علـــينا

يـــا مـــن يقـــول للوالـــدة ترضـــى علينـــا

رضـــاها مـــن رضـــى رب الـــسماء

* * *

عتابـــا عـــاتبتني يـــا هـــواني

علـــى الـــدربين تلعـــب بهلـــوانِ

أبـــو المنـــديل هـــو اللـــي رمـــاني

وعلّقـــني في شـــباك الهـــوى

* * *

ومثلـــك في البلـــد خـــلاّن مـــا لـــي

يـــا أبـــو محمـــد يـــا عِـــزِّي ومـــالي

أنـــا شـــبّهتك لأبـــو زيـــد الهلالـــي

---

(١) – وقية: أوقية، وحدة قياس تساوي ربع كيلو غرام.

ومثـــل ذيـــاب علـــى الخـــضرا[1] اعـــتلا

* * *

يـــا قلـــبي بَطِّـــل الوســـواس والهـــمّ

وأسْـــحَن[2] مـــن دقيـــق الـــصبر وألهـــم

أنـا كـلّ مـا أقـول الـصفا يغلـب علـى الهـم

وأتـــاري[3] الهـــمّ غالـــب عَ الـــصفا

* * *

مَـــرَق[4] عـــني وخطماتـــه[5] خفيّـــة

وشـــبك عقلـــي بـــصنارة خفيّـــة

يـــا ربـــي تظـــلّ هالعِـــشرة خفيـــة

مـــا بـــين اثـــنين مـــا يـــدري حـــدا

* * *

(١) – الخضرا: فرس ذياب بن غانم من أبطال سيرة بني هلال، والخضرا من الخيل هي ذات اللون الأبيض.

(٢) – اسحن: اطحن.

(٣) – أتاري: إذا بـ.

(٤) – مرق: مرَّ.

(٥) – خطماته: خطواته.

٢ - الدلعونا

الدلعونا نوع من الغناء الذي يُغَنّى على الشبابة، ويتغنّى به الرعـاة مـع مواشـيهم في الفلوات، وكذلك في مناسبات الأعراس حيث يخرج أحـد الـشبّان الـذين يتقنـون الغناء على الشبابة ويتحلّق حوله كثيرٌ من الشبان ويأخذ في "العزف" على شـبابته، ويغني شخصٌ آخر ألحان الدلعونا بينما يقوم الآخـرون بالـسحجة (التـصفيق) علـى الأكفّ.

ومن لفظة الدلعونا اشتقوا فعلاً فقـالوا: دَلْعَـنَ، يُـدَلْعِنُ، دَلْعَنَـةً؛ أي تغنّـى بهـذا النوع من الغناء.

وهذه نماذج من غناء الدلعونا:

علـــى دلعـــونا وليـــش دَلَّعْتِينِـــي
وَلَمَّنِـــي متْجَـــوِّز لـــيش أخـــذتيني
لأكتـــب كتابـــك ع ورق تـــيني
واجعـــل طلاقـــك حَبّـــة زيتونـــا

* * *

علـــى دلعـــونا مـــن هَـــان ورايـــح
واطْـــراف الحَطَّـــة بتُـــنْقُط روايـــح
والله لآخـــــذكِ واتَمْنِـــــي رايـــــح
ع بـــلاد الغُرْبَـــة مـــا بيعرفونـــا

* * *

علـــــى دلعونــــا ويــــا حبايبنـــــا
بَطَّلْـــنَا ناخـــذ مـــن قرايبنـــــا
بَطَّلْنَـــا ناخـــذ غـــير اللــي يعجبنـــا
وانتـــو انقهــــروا يـــاللي تكرهونـــا

* * *

هيـــه يـــا أمّ الـــشَّعَر ع الحنَــك مَحْنِـــي
ســـواد عيونـــك بقلبـــي جَرَّحْنِـــي
وادعـــي لـــي يُمَّـــه ربـــي يـــسامِحني
في مــــشي الجهـــل وأنـــا زغنونـــا

* * *

واصــبر يــا قلــبي وايــش اللــي صــابك
دايـــر متلـــوِّع علـــى فـــراق حبابـــك
يـــا رب العـــالي مـــا أوســـع أبوابـــك
حــــرام الجفـــا لـــيش بينـــسونا

* * *

يُمَّـــه يـــا يُمَّـــه مـــا بَـــدِّي الـــشايب
قلبــــي مـــن جـــور الليـــالي ذايـــب
بُحَّـــاش القبـــر عَلّـــُوا النـــصايب
ورُشُّـــوا ع الكفـــن مَيَّـــة ليمونـــا

مـــن هـــان ورايـــح مـــن هـــان ورايـــح
دربـــــك يـــا حليـــوة تنقـــــط روايـــح
يـــا مـــا سوّينـــا معكـــم ملايـــح
واجـــــــب عليـــــــكو تتـــــذكرونا

***

لمـــــا لاقـــاني بالـــــضحك تبـــــسّم
يـــا شـــحم القلـــب مـــن جُـــوًّا تقـــسّم
يـــا اللـــي فـــسطانك ع الخـــصر مكَـــسَّم
وارفعـــــي الغـــــرة عـــــن العيونـــــا

***

والله يـــــا عيـــــوني لازم أقلعكـــــــن
أســـــباب الجفـــا والـــــبلا مـــــنكن
وان طـــــال العمـــــر غـــــير اتـــــابعكن
وأنـــــا بهـــــواكن دايمـــــاً مرهونـــــا

***

٣ - ظريف الطول

هو لحن شعبيّ آخر ليس من ألحان البادية ولكنه انتشر في الأوساط الشعبية، وغنّى به العامّة ألحانهم التي تحمل طابع التحسّر أو الغزل، وكانوا يلفظون كلمة ظريف الطول كما يلفظها المصريون فيقولون: "زريف الطول"، وكان منهم من يُسَمِّي ابنته "زريفة"، أي ظريفة، وانتشر هذا الاسم في العقود الأولى من القرن الماضي حتى أصبح دارجاً مألوفاً. ولحن ظريف الطول لحن قرويّ أو جبليّ، وهو لا يتناغم بشكل تام مع طبيعة أهل الصحراء ولولا ما فيه من الحسرة واللوعة لما استساغته روح أهل البادية التي تميل بطبعها إلى الانطوائية والحزن، وبرغم كلّ ذلك ظَلَّ هذا اللحن أقل انتشاراً، ولم يحظَ بذلك الانتشار الذي حظيت به الألوان الأخرى.

وهذه بعض الأبيات والمقطوعات من ظريف الطول:

يا ظريف الطول رَيِّظ[1] تا قولّك
رايح الغُربة بلادك أحسن لك
خايف يا محبوب تروح وتتملَّك
وتعاشر الغير وتنساني أنا

* * *

يا ظريف الطول وين رايح تروح
جرحت قلبي وغمَّقت الجروح

(١) – رَيِّظ: أصلها: رَيّث من الريث؛ وهو الأناة والتمهّل.

مـــن رافـــق الـــزين لازم مـــا يـــسوح
لـــو كـــان عقلـــه بالجبـــال موَزَّنَـــا

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول والله انـــك ظريـــف
عـــذّبت قلـــيبي يـــا بـــو الخـــد النظيـــف
يـــا مـــن يحـــبّ الله ويعطـــيني رغيـــف
مـــن خبـــز المحبـــوب يكفـــيني ســـنة

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول ع عـــين العَلَـــق
والعُنـــق شِـــبرين وهيـــك الله خَلَـــق
حلـــوة مليحـــة لـــو لبـــست خَلَـــق[1]
وايـــش حـــال لـــو تلـــبس هـــدوم الولدنـــة

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول يـــا عـــيني الـــيمين
قـــولّي يـــا محبـــوب بعـــدي تهـــوى مـــين
والله يـــا ابـــن العـــم لأحْلِـــف لـــك يمـــين
مـــا يخـــشّ الـــدار غيـــر أنـــت وأنـــا

* * *

(١) – الخلَق، ج خُلقان: الثياب الرثة البالية.

يـــا ظريـــف الطـــول مَـــشْيَك دَلَـــع لـــيش

يـــا كحيـــل العـــين هالبُغْـــضَة علـــيش

لـــو ســـقوني المـــر بعـــد المـــر شـــيش

لا غِنَـــى عـــنكم حبابـــي لا غنـــى

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول مَـــرّ ومـــا الْتَفَـــتْ

وَلَّعَـــت نـــاره بقلـــبي ومـــا انطفـــت

إن كـــان يـــا ولفـــي هالعِـــشْرة جَفَـــت

لا بـــارك الله في عِـــشْرة غيرنـــا

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول ماشـــي القـــوز القـــوز

يـــا خـــسارة الحـــزام في صُـــلب العجـــوز

لأروح للحـــاكم أقـــول لـــه مـــا بيجـــوز

حَزِّمهـــا بتلفـــون واحكمهـــا بـــسنة

* * *

يـــا ظريـــف الطـــول ويـــن أهلـــك غـــدوا

ع جبـــل حـــوران شـــالوا وابعـــدوا

يـــا مـــن يبـــشرني ويقـــول لـــي عـــاودوا

يأخـــذ فـــدّانين مـــع فَلْحـــة ســـنة

الباب الثالث

أغاني المناسبات الخاصة

- - أغاني الاستسقاء.
- - أغاني ورود الماء.
- - أغاني الحصادين.
- - دقة المهباش.

أغاني المناسبات الخاصة

هناك أنواعٌ أخرى من الغناء تُغَنّى في مناسباتٍ خاصة وفي حـالات معينـة، فمنهـا ما يُغنّى في استقبال الأمطار نظراً لتعطّش الصحراء لكلِّ زخّة مطـر وكـلّ قطـرة مـاء، وأغانٍ أخرى تُغنّى عند الحصاد لتنشيط العمّال ورفع الهمّة، وكذلك عند نَـشْل المـاء من البئر وسَقْي المواشي، وأيضاً عند تحميل القَشّ على ظهور الإبـل، وعنـد دراسـة القشّ وتذرية الحبوب وغيرها.

١ - أغاني الاستسقاء واستقبال الأمطار

من عادة البدو أن يفرحوا للغيث والمطر، ويروا فيـه نعمـةً مـن نعـمِ الله سـبحانه، فنراهم يبتهجون لقدومه، ويفرحـون لمجيئـه، فبدونـه لا ينبـت العـشب ولا تمتلـئ الغدران ولا يبقى مصدر تعيش منه الماشية.

ومن عـادة البـدويّ أن يرصـد النجـوم ليعـرف إذا كانـت تلـك الـسنة سـنة خـيرٍ وخصب أو سنة مَحْلٍ وقحط، وسمعتُ أحدهم يقول: "إذا انْقَضَّ سهيل على الثريّـا وفَطَّطَها، أي بعثرها، فابشروا بالخير، أما إذا مَـرَّ بجانبهـا دون أن يلامـسها فـلا تستبشروا خيراً". ومن أمثالهم: «**إذا طلع سهيل لا تأمن للسيل**».

ومن أغانيهم في ذلك:

يـــا الله المطـــر يـــا رَبِّـــي ســـحابة تمطـــر صَـــبِّي

يـــا أم الغيـــث غيثينـــا | عَقَــاب الليــل[1] ضِــيفِينا
يـــا أم الغيـــث غيثينـــا | بلِّــي زرَيْعــة[2] راعينــا
يـــا أم الغيـــث تعـــالي | وأنــا بأشـكي لـك حــالي

* * *

ومن أغانيهم أيضاً عند انحباس المطر:

يــا ربـــي مطــر وريـــاح | تــسقي زرَيْعــة الفَــلاَّح
يــا ربـــي مطــر صُــبِّي | تبـلّ زرَيْعنــا الغربـــي
يــا ربـــي يــا ربّ القــدَر | تــستعجل لنــا المطــر
يــا ربّ الغيــث يــا دايــم | وتــسقي زرعنــا النــايم
يــا رَبّــي بــلّ الــشَّرْتُوح[3] | ويــن نْلَقّــي ويــن نْــرُوح

* * *

والخيـــل شَـــحّ عليقهـــا | والقمـح اسَّــاع[4] مـا انبـذر
يـــا ربنـــا يـــا ربنـــا | تخـــصب لنـــا زرعنـــا
يــا ربنــا يــا رب الــسعود | تــستعجل لنــا الرعــود

(١) – عَقَاب الليل: في نهاية الليل.
(٢) – زريعة: تصغير زَرْعة ويقصد بها الزرع الأخضر.
(٣) – الشرتوح: ج شراتيح: الأسمال، الملابس البالية.
(٤) – اسَّاع: حتى هذه الساعة.

أما الأطفال فلهم أغانيهم البريئة التي يغنونها استقبالاً وابتهاجاً لهذا الوافد الكريم وهذه النعمة السماوية المباركة، ولكننا سنذكرها في فصلٍ خاص أفردناه لغناء الأطفال وأهازيجهم.

٢ - أغاني ورود الماء

كان الناس يَرِدُون على آبار الماء أو الهَرَاب؛ وهي الآبار التي تُحفر لتملأ من مياه السيول والأمطار، وكانوا ينشلون الماء ليسقوا مواشيهم وقطعانهم وكثيراً ما كانوا يغنّون بعض الأغاني الخاصة التي تبثّ فيهم الحمِيّة والنشاط، وتخفّف عنهم عناء سحب الماء لقطعانٍ كبيرةٍ من الإبل أو الماشية، ومن هذه الأغاني:

يا صويحبي يا سالم — والبير هذا ظالم

ورّدِي وتعالي دِبِّي[1] — لكِ زمان مغِبِّي[2]

ومن أغانيهم أيضاً:

---

(١) – دِبِّي: املأي.

(٢) – مغِبّ: لم يشرب منذ يومين.

بُرْقُــع ســلنطح[1] طــايح في الــبير أبــو صــفايح

تناوَطَــــتْ للمــــايح[2] تَحْــسب ولــدَها طَــايح

يــا بــير يــا هَجْهُــوجِ يــرْدَن عليــك العُــوجِ[3]

يــا بــير يــا مقَلْــوَز[4] عَتَبــك علــى المتْجَــوِّز

عَلَـــيّ رَيّ الفَـــاطَر[5] يُــومن[6] يطيــب الخــاطر

يـــا ريَّهـــا ريَّـــيْنِ ريّ الحَـــدَق في العـــينِ

عَلَـــيّ مـــا أرْوِيهـــا ولا أتْجَمَّـــل فيهـــا

يــا وَبْــش[7] لا تلطمهــا صُــبَّه علــى خُرْطُمْهــا[8]

❦

(١) – سلنطح: اسم علم مؤنث.

(٢) – تناوطت: حاولت تناول شيء مرتفع. المايح: الذي يملأ الدلاء من البئر شحيحة المياه.

(٣) – العوج: الإبل، ويسمونها أيضاً "عوجا ساق".

(٤) – مقلوز: مائل.

(٥) – الفاطر: الناقة المتقدمة في العمر.

(٦) – يومن: يوم أن، إلى أن.

(٧) – الوبش: السفيه من الرجال.

(٨) – خرطمها: مقدم وجهها وفمها (الناقة).

٣ - أغاني الحصّادين

موسم الحصاد هو موسم الخير والبركة، وهو موسم جمع الغلال، الذي ينشط فيه المزارعون لحصد مزروعاتهم من قمح وشعيرٍ وعَدَس، وهو يبدأ في أواخر نيسان ويستمر شهرين أو ثلاثة، وإذا كان الزرع كثيراً فغالباً ما يستأجر صاحب الزرع حصَّادين لهذا الغرض، وكان كثير من العمَّال يأتون من مصر مع عائلاتهم لهذا الغرض، ويقيمون فترة الصيف كلّه يحصدون ويدرسون، وقد تكون أجرتهم نصف الغلّة أو ثُلثها، وإذا ما فرغت عائلةٌ من حصد مزروعاتها، وظلّت عائلة أخرى من أقاربها، فغالباً ما يلتمون ويُعِينُون تلك العائلة في يوم عونة ويحصدون معها حتى تنهي ما تبقى لديها دون حصاد.

وكانوا في هذا الموسم يغنون بعض الأغاني الخاصة التي تُسَلِّيهم وتعينهم وتبثّ فيهم روح الهمّة والنشاط، حتى يكملوا يومهم دون أن يستولي عليهم التعب والملل، وكانوا عندما يحصدون بالقالوش وهو نوع من أنواع المناجل يقولون:

بالقالوش أنا بأهوش، وبالمنجل ماني حصّاد

وتجدر الإشارة إلى أن هناك أربعة أنواع من المناجل، هي: القَالُوش، والمنجل، والسحَيْلِيّة والشَّرْشَرة، بعضها يُحصد به الشعير، وآخر للقمح وثالث للذُرَة.

وعندما يقول الحصاد:

بالقالوش أنا بأهوش، وبالمنجل ماني حصّاد

فهو يعني أنه يحصد بالقالوش وليس بالمنجل، لأن فتحة القالوش أكبر من فتحة المنجل وبالتالي فهو يحصد كمية أكبر.

وقد يغني الحصّاد لمنجله الحادّ الذي شحذه وصقله وجلاه عند أحد المختصين، فيقول:

منجلـي يـا مـن جـلاه　　　رحـت للـصايغ جـلاه

الـصايغ جـلاه بعلبـة　　　يجعـل العلبـة فـداه

ويؤكد الحصّاد أن منجله من النوع الجيد، فله رزات على مقبضه، وقد صُنع في غزة حيث كانت تصنع الغرابيل والكرابيل وأدوات الزراعة المختلفة، فيقول:

منجلـي يـا بـو رزّة　　　واشـتريته مـن غـزّة

ولكي ينقّي الحصاد ما يحصد ويأخذ عيدان القمح أو الشعير مع سنابلها الجافة، ويترك ما دون ذلك، يقولون:

يـا حـصّاد عوَيْـد عوَيْـد　　　نقّي الـسَّبَلَة مـن الـسُّوَّيْد[1]

ولبثّ روح النشاط وتقوية الهمم عند الحصّادين خاصة عند لَمّ الغمور وجمعِها يقولون:

الـزَّرْع وِدّه هِمّـة　　　وِدّه شـباب تلِمّـه

وبعد أن تخفّ حرارة الشمس، ويحين وقت العصر يعود الحصَّادون ليكملوا يومهم في هذا العمل الشاقّ، فيقول أحدهم مُنَشِّطاً الباقين:

---

(١) – السوّيد: نوع من الأعشاب البرية التي تنبت في الزرع.

والــزَّرْع يــا منــصورة　　　والــزَّرْع لــه عيــصورة[1]

عيــصورته مــن جنبــه　　　تعطــي الغمــور نــشوره

والــزَّرْع واعطــى قفَــاه　　　وأضــــربه بالعَقَفَــــاه[2]

وبعد أن ينهي الحصّادون يومهم في الحصيد، يقومون بجمع الغمور ووضعها في مكانٍ واحد حتى تصبح كومةً كبيرة، وهذه الكومة تُسَمّى "حِلّة" وجمعها "حلَل"، استعداداً لنقلها للبيدر على ظهور الجمال، وفي آخر النهار يكون التعب قد بلغ من الحصادين كلّ مبلغ، ورغم ذلك عليهم جمع الغمور ووضعها في مكانٍ واحد كما ذكرنا، فيصوّر أحدهم حالتهم في هذا الوضع ويقول:

عُقْب الحـصيد غْمَـارَةْ[3]**　　　يــا عيــشة العَــزَارَة**[4]

وعندما يتعب الحصّادون يطلبون من صاحب المزرع أن يَحِلـهّم؛ أي أن يسمح لهم بإنهاء العمل والعودة لبيوتهم، ويقولون له:

يـــا مْعَلِّــم حِلّنـــا　　　حتـــى نْـــرَوِّح كُلّنـــا

فيجيبهم بقوله:

---

(١) – العيصورة: الحصاد وقت العصر.

(٢) – العقفاة: العقفة؛ وهي انحناءة المنجل وفتحته التي يحصد بها.

(٣) – غمارة: جمع الغمور.

(٤) – العَزارة: شدة التعب والإرهاق.

والله مـــــا بـــــأحِلّكوْ   غــــير يبـــيّن ظِلّكُـــوْ

وكان من شدة الفقر في تلـك الفـترة، أن كـثيراً مـن النـاس لم يكونـوا يملكـون قـوت يومهم، فكانوا يلجأون إلى لملمة السنابل التي تتـساقط وراء الحـصّادين بعـد جمعهـم للغمور، وكانوا يستأذنون صاحب المزرع الذي يسمح لهم في كثيرٍ من الأحيان بجمـع تلك السنابل القليلة المتساقطة على الأرض، وكان من غناء الحصادين التي يـصوّرون بها تلك الأحداث:

بــــالله يـــا معلّمنـــــا، لا تنهــــر الــــصيّاف
صــيّاف مـــسكين، مـــن جَـــرّ العـــصا بيخـــاف

وربما تأخذ الرأفة والرحمـة طريقهـا إلى قلـوب بعـض أصـحاب المـزارع فيـوعزوا إلى الحصّادين برمي بعض السنابل حتى يلتقطها هؤلاء الفقراء ويعتاشون منها، غـير أن هناك من يستقبلهم بغلظةٍ وفظاظة ويطردهم من مزرعه ولا يسمح لهم بدخوله، ومـن هنـا جـاء اسـتعطاف الحـصّادين لأصـحاب المـزارع لكـي يترفقـوا بهـؤلاء المـساكين ويدعونهم يلتقطون من هذا الرزق القليل.

وعلى ذِكر الصيّافين أذكر أنني في بداية السبعينات من القرن العشرين سمعت امـرأة عجوز تحدّث أبناءها وتوصيهم على الحرص والتـوفير وتقـول: «كنـت أنتظـر حتـى تمرّ شِبَاك القشّ، وألتقط السنابل التي تقع منها على الطريق، وكنت أدُقّها وأخـرج حَبَّها، ثم أجرش ذلك الحَبّ وأطحنه على الرّحى وأعمل منـه دقيقـاً قلـيلاً أعجنـه

وأخبز لكم منه رغيفاً أو رغيفين»، وهي توصي أبناءها أن يحرصوا ويدَّخروا حتى لا يمروا بظروفٍ كتلك التي مرّت بها[1].

إنها سنوات عجاف مَرَّ بها أهلنا، وعانوا خلالها من الفقر والجوع والمرض ما عانوه، وتركت في نفوسهم آثاراً ما زال الأحياء منهم يذكرونها حتى اليوم.

وإنني على يقين أن كثيراً من أغاني الحصّادين قد ضاع واندثر بفعل تقدم الزمان، وزوال عادة الحصد بالأيدي في عصر الآلة والماكنة، وبسبب سنوات القحط والمحل التي تسود المنطقة منذ عدة عقود، الأمر الذي جعل المزارعين يهجرون مزارعهم، ويبحثون عن مصادر أخرى للرزق في التجارة وأعمال البناء والوظائف المختلفة الأخرى.



---

(١) – أنظر كتاب" المأكولات الشعبية في النقب"، ص ٢١.

٤ - دقّة المهباش

المهباش أو الجُرن هو وعاء خشبيّ مزخرف يستعمل لـدقّ القهـوة وطحنهـا، وكـانوا عندما يدقّون فيه القهوة، يُصدر صوتاً رتيباً متناسقاً، وله لحـنٌ وإيقـاعٌ خـاص بـه، وكانوا يتقنون الدقّ عليه بعدة دَقَّاتٍ مختلفة، لكل دقّةٍ منها صـوتُ ولحـن يختلـف عن الأصوات الأخرى، ولذلك كان من يتقن نوعاً من هذه الدقّات يشعر بأنه يعـزف لحناً خاصاً لا يتقنه كثيرٌ غيره، وكانوا يُطيلـون الـدقّ عليـه حتـى يـستمتعوا بهـذه الدقّات ويطربوا لهـا، وكـأن هـذا اللحـن يهيـئ لهـم جـواً ومزاجـاً لـشرب القهـوة واحتسائها بمتعة ونشوة.

الصفير المموسق

إنه نفس الصفير الذي ينفخونه في الشبابة أو المقرون، ولكنه هنا صفير من الفـم بـلا آلة نفخ، وهو يحمل نفس النغمة التي يؤدونها على الآلات المـذكورة ولكنـه بـصوت منخفضٍ وهاديء، وكثيراً ما سمعـت والـدي رحمـه الله يـؤدي لحنـاً معينـاً بـصفير هاديء وكأنه يعزف لنفسه ويترنم باللحن الذي يريده، وغالباً ما كـان يُطلـق صـوته بلحنٍ من تلك الألحان الشجية، وكأن الصفير مقدمة موسيقية للحن يُؤدّى بعده.

الباب الرابع

أغاني النساء والأطفال

- - هدهدة الأطفال.
- - أغاني الطهور.
- - أغاني الأعراس.
- - أغاني الأطفال.

أغاني النساء

من المعروف أن النساء يملن إلى الغناء بطبيعتهن، ويجدن في التعبير به متنفساً لهنّ، يُعَبِّرن من خلاله عن شعورهن وأحاسيسهن الأنثوية المختلفة، فالمرأة تهدهد طفلها وتغنّي له بصوتٍ حنون حتى يغفو وينام، وتغنّي له عند ختانه، وعند خطوبته وزفافه، وتغنّي وهي تغزل غَزْلَها، وهي تملأ جرارها، وهي تُطرِّز ثوبها، وتشارك نساء المجتمع والقبيلة في مناسبات الأعراس والليالي السعيدة، وتغنّي للعيد ولاستقبال الحجاج وفي مناسبات أخرى عديدة.

وفي الأعراس تكون الفرصة مواتية لتُظهر المرأة براعتها في الرقص والغناء والزغاريد، فإذا ما برزت مواهبها فهي تعود لتظهر مقدرتها وبراعتها في أعراسٍ أخرى، ومنهن من تبرع في الزغاريد فتسمع صوتها يجلجل بزغرودة عالية رنانة، وهكذا نرى أن الأغنية النسوية شملت جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية وعبرت عنها بالغناء والأهازيج وتركت لنا كمية كبيرة من هذا الفن، الذي ندوّن منه في هذا الكتاب ما استطعنا جمعه وتوثيقه.

هدهدة الأطفال

بما أن الغناء وما يصاحبه من لحنٍ حنونٍ قد يبعث الهدوء في الـنفس ويهـدأ معـه المزاج، فعادةً ما تلجأ إليه الأم إذا مـا بكـى طفلـها، أو إذا أرادت أن ينـام ويرتـاح قليلاً، فنراها تُغنّي له بصوت فيه رقّة وحنان وتقول:

نامي يا عين محمد نامي، وأنا أذبح لكِ جوزين حمامِ

أما إذا كانت تلاعب طفلها وتُرَقِّصه بين يديها، فتغنّي له قائلةً:

زيّـــك مــــا جــــابَن .. زيّـــك مــــا جــــابَن

يــــوم انْحَــــنَن وشــــابَنْ .. يــــوم انْحَــــنَن وشــــابَنْ

وتغني له أيضاً:

يــــا ريــــت مثلــــك مِيّــــه، كلــــهم حواليّــــهْ

شــــبّان ولهــــم رْدَان، ولهــــم ســــيوف محنيّــــة

* * *

يــــا ريــــت مثلــــك ثمــــانين، عنــــد أهلــــك المــــساكين

شــــبّان ولهــــم رْدَان، وقــــاريين ســــورة ياســــين

وعندما يخطو الطفل خطواته الأولى تفرح له الأمّ وتغني له قائلة:

انْسَدّ يا بير، انْسَدّ يا بير، حتى يمشي الصغير

وقد تكررها عـدة مـرات وهـي ترقُـب طفلـها في وضـعه الجديـد، ثـم تُمـسك يـده الصغيرة لتعينه على الوقوف وعلى بدء خطواته الأولى وتقول:

دَادِهْ يا قْرَيْن الفُول   محمّد يكبُر ويطُول

ثم تضيف:

أوّل أوّل ولا يتحَوَّل، أوّل أوّل ولا يتحَوَّل.



أغاني الطهور

كان طهور الأولاد يتأخر قليلاً، ولا يتمّ في الأشهر الأولى من عمر الطفل، نظراً لقلّة المُطَهّرين في المنطقة، وقد يتأخر طهور بعض الأطفال فتمر السنين وهم على حالهم، وقد حدث أن تطهّر بعض الأشخاص مع أبنائهم، ولا يُسمح للشخص غير المطهّر أن يذبح الذبائح سواء كانت من الماشية أو حتى من الطيور والدجاج، ويعتبرون ذبحه كذبح المرأة فلا يأكلون منه.

و كان بعض الناس عندما يُطهّرون أبناءهم ينصبون بيوتاً كبيرة ويقيمون الأفراح لمدة أسبوع، وكانوا يلعبون على الخيل في هذه الأيام ويذبحون الذبائح ويُنقِّطون والد الطفل كما هو الحال في العرس العاديّ، وكان بعض الأهل ممن يقودون وينقّطون غيرهم في مناسبات الأفراح يلجأون لهذه الطريقة لاسترجاع نقوطاتهم الكثيرة التي قدّموها للناس في فترات سابقة، وما زالت هذه العادة متبعة حتى يومنا هذا.

وللطهور أغان خاصة تغنيها النساء عند طهور الطفل، جمعنا منها المقطوعات التالية:

بالله يا شَلَبي[1]، بالله عليك
لا توجع الصبيانِ، نزْعَل عليك

* * *

طَهّره يا مطَهِّر، وناوله لأمّه
يا دموع المدلّل، بَلَّلن كُمّه

---

(١) – الشلبي: مطهّر الأولاد.

طَهّـــره يـــا مطَهِّـــر، وناولـــه لأبُـــوهْ
يـــا دمـــوع المـــدلّل، لُولُـــو لَظَمُـــوهْ[1]

* * *

طَهّـــره يـــا مطَهِّـــر، في المـــوس[2] الرفيـــعْ
واسْـــتَنَّى يـــا مطَهِّـــر، لا مِنّـــه يطِيـــع

* * *

طَهّـــره يـــا مطَهِّـــر، في المـــوس الفِـــضّهْ
واسْـــتَنَّى يـــا مطَهِّـــر، لا مِنّـــه يرْضَـــىْ



(١) – لولو: لؤلؤ. لظموه: نظموه في عقد.

(٢) – الموس: الموسى. سكين الحلاق أو المطهّر.

أغاني الأعراس

التقطِّر:

هو نوع من الغناء تغنيه النساء المتقدمات في العمر والعجائز، حيث تجتمع عدة نسوة ويتقابلن في شبه دائرة ويغنين بلحن ممطوط لا إيقاع فيه، فيقلن يا بو محمد بالطريقة التالية: ياااااا بوووو محاااااامد، وهكذا.

وقد انقرض هذا اللون من الغناء أو كاد، ولم يبق مَنْ يعرف عنه سوى بعض النسوة المخضرمات والمتقدمات في السن كما ذكرنا، أما الجيل الجديد فيكاد يجهل هذا اللون من الغناء ولا يعرف عنه شيئاً.

وهذه نماذج من هذا اللون من الغناء:

مربعّات شقاقه، يا بيت أبو محمد، مربعات شقاقه

ما يهز رواقه، ريح العصاري، ما يهز رواقه

* * *

إن ترَّجَتْ[1] في البورة[2]، يا فرس أبو محمد، إن ترجت في البورة

من عرب مذكورة، هذاك القاضي، من عرب مذكورة

* * *

---

(١) — تَرَّجَت: انحدرت نحوز

(٢) — البورة: الأرض غير المزروعة التي ينبت فيها العشب والكلأ.

مــن بعيــد مــشحاهن[1]، ســبع الركايــب، مــن بعيــد مــشحاهن

مطلِّــق[2] ع غــداهن، هــذاك أبــو محمــد، مطلــق ع غــداهن

* * *

في البكـــرج المليـــان، وأنـــا بغـــني، في البكـــرج المليـــان

مــن عنــد ابــن شــعلان، جَنَّــا الهــدايا، مــن عنــد ابــن شــعلان

* * *

ســاكنات الخربــة[3]، وايــش البــواهش، ســاكنات الخربــة

حَــوّدَنْ[4] عــن دربــه، هــذا أبــو محمــد، حَــوّدن عــن دربــه



(١) – المشحى: السفر.

(٢) – طَلّق على: أقسم بالطلاق أن يعمل قِرى ل.

(٣) – الخربة: المكان الذي به بقايا مهدمة لأبنية قديمة العهد.

(٤) – حَوَّد: حادَ عن.

ألوان أخرى من أغاني الأعراس

وهناك أنواع أخرى من الغناء الراقص الذي تؤديه الشابّات من النساء أو البنات ويصاحبه الرقص والضرب على الطبل والزغاريد وتصفيق الأيدي، وتنتظر النساء هذه المناسبات لتفرغ وطاب فَنِّها وإبداعها أمام زميلاتها، فتمتاز بعضهن بالرقص وأخرى بطول الزغرودة وقوتها وغيرها بجمال الصوت والغناء وما إلى ذلك.

وعند بيت الفَرح، وهو ذلك البيت الطويل الذي يُبنى لاستقبال المهنئين من الرجال، ويظل منصوباً طيلة أسبوعٍ كامل، ومن أغاني النساء في هذه المناسبة:

يكْـــــرَع[1] للـــــوادي، يكـــــرَع للـــــوادي

شِـــــقّ أبـــــو جمـــــال، يكـــــرع للـــــوادي

لهـــــــــالأجْوَادِي، لهـــــــــالأجوادي

صُـــــبّوا القهـــــاوي، لهـــــالجوادي

* * *

هَيُّـــــو[2] في البُـــــورة، هَيُّـــــو في البـــــورة

شِـــــقّ أبـــــو جمـــــال، هَيُّـــــو في البـــــورة

لهالـــــــــصقورة، لهالـــــــــصقورة

صُـــــبّوا القهـــــاوي، لهالـــــصقورة

---

(١) – يكرع: تعني عنا: يمتد حتى.

(٢) – هَيّو: ها هو. البورة: الأرض الواسعة النظيفة التي لا زرع فيها.

رَجُـــــــل بـــــــصحيحِ، رَجُـــــــل بـــــــصحيحِ

خيـــــيّ أبـــــو جمـــــال، رجـــــل بـــــصحيحِ

مـــا هـــــو مَزِّيحـــــي[1]، مـــا هـــــو مَزِّيحـــــي

بـــــأحكي مـــــن جَـــــدّي، مـــا هـــــو مَزِّيحـــــي

* * *

شَـــــرَّق مـــا غَـــــرَّب، شَـــــرَّق مـــا غَـــــرَّب

طرمبيـــــل[2] الزينـــــاتي، شَـــــرَّق مـــا غَـــــرَّب

مـــا معنـــا مهَـــــرَّب، مـــا معنـــا مهَـــــرَّب

لا تعارضـونـــــا، مـــــا معنـــــا مهـــــرَّب

* * *

ويستمرّ الغناء خلال أسبوع الفرح في الصباح والمساء، وتتوافد النساء من أقارب العريس ومن معارف أمه وصديقاتها ويغنين لها ويشاركنها في فرحتها بزواج ابنها الغالي، ومن هذه الأغاني الكثيرة اقتطفنا هذه المجموعة المختارة، وهي غيض من فيض من هذه الأغاني الجميلة:

(١) – مزّيحي: كثير المزاح.

(٢) – طرمبيل: سيارة، من الكلمة الانجليزية أوتوموبيل.

يا عَمّي يا أبـو محمّـد، يـا لابـس عبـاة[1] المـال
ليجيبوا مهما يجيبوا، زَيّك ما بأشـوف رجـال

***

يا عَمّي يا أبو محمّد، يا لابـس عبـاة الجُـوخ[2]
ليجيبوا مهما يجيبوا، زَيّك ما بأشـوف شـيوخ

***

يـا لابـس عِـدّة الجـيش، عَ حارتنـا لا تجـيش
أول مـرّة بـأسمح لـك ، ثـاني مـرة عَ التفتـيش

***

يا لابس عِـدّة الجـيش، مَيّـل عنـدي واشـلحها
كان النَّـسْبة[3] مـن أمّـك ، ربّ الـسما يفرِّحهـا

***

يا لابس عِـدّة الجـيش، مَيّـل عنـدي وارميهـا
كـان النَّـسْبة مـن أمّـك ، ربّ الـسما يهَنِّيهـا

***

يـا أبـو قمـيص رصاصـي، لَجَّـتْ علـيَّ النـاسِ

---

(١) – عباة: عباءة.

(٢) – الجوخ: نوع من القماش الفاخر.

(٣) – النَّسْبة: النسب، المصاهرة.

كلامـك علـى عـيني، وكـلام أمّـك عَلـى راسـي

* * *

وهذا نموذج آخر من هذه الأغاني:

يـــا طـــير يـــا مغـــرِّب غَرْبَـــا، يـــا دادا

خـــــــذني عَ جناحـــــــك ريـــــــشه

واســـقيني مـــن ميّـــة أهلـــك، يـــا دادا

ميّـــــــة أهلـــــــي بترويـــــــشي

* * *

كبِّـــــي[1] علـــــيَّ كبِّـــــي، يـــــا دادا

مـــــــن مَيّـــــــة الهرابـــــــة[2]

عـــــيني بتنظـــــر عَ محمـــــد، يـــــا دادا

عَيّـــــــتْ عـــــــن الغَرَابـــــــة[3]

* * *

(١) – كَبَّ: سكب.

(٢) – الهرابة وجمعها هَرَاب: البئر التي تمتليء من مياه الأمطار.

(٣) – الغَرَابة: الغرباء، الذين ليسوا من العائلة.

كبِّـــــي علـــــيَّ كبِّـــــي، يـــــا دادا
مـــــــن مَيّـــــــــة[1] البَرْكيّـــــــــة
عـــــيني بتنظـــــر عَ محمـــــد، يـــــا دادا
عَيّـــــــتْ[2] عــــــن الكُليّـــــــــة[3]

***

وهذا نموذج بإيقاعٍ آخر:

ويـــن معلّـــق هالـــساعة، يـــا محمّـــد ويـــن
معلقهـــــا في الخزانـــــة، يـــــا غزالـــــة

***

ويـــن معلّـــق هالـــساعة، يـــا محمّـــد ويـــن
معلقهـــــا في العمـــــودِ، يـــــا قعـــــودي

***

ريتــك تــسعد يــا محمّــد يــا بــو خــاتم ذهــب
لا تزعلـــي يـــا أمّـــه بَدْلتـــه مـــن حلـــب

***

---

(١) – مَيّهْ: ماء، مياه.

(٢) – عَيَّت: لم ترضَ ب، رفضت.

(٣) – الكلية: تعني هنا: الكل، الجميع.

ريتــك تــسعد يــا محمّــد يــا بــو خــاتم ألمــاز
لا تزعلـــي يـــا أمّـــه بدلتـــه مـــن الحجـــاز

* * *

ريتــك تــسعد يــا محمّــد يــا بــو خــاتم حَيّــهْ
لا تزعلــــي يــــا أمّــــه بدلتــــه عَلَيَّــــا

* * *

والـــزعيم أبـــو نعـــيم، مَلَّـــى الإبريـــق
والـــضيوف بتـــستنى علـــى الطريـــق

* * *

والـــزعيم أبـــو نعـــيم، مَلَّـــى الكاســـات
والـــضيوف بتـــستنى علـــى الفراشـــات

* * *

وهذه نماذج غنائية تغنّى عند أخذ العريس للحمّام:

ويـــن بـــاقي ويـــن، يـــا محمـــد يـــا مـــدلّل
بـــــاقي في الحمّـــــامِ، والـــــشعر مبلّـــــل

* * *

ويـــن بـــاقي ويـــن، يـــا محمـــد يـــا عـــريس
بـــــاقي في الحمّـــــامِ، وكـــــاثِح هالـــــشاليش

ويـــــن بــــــاقي ويـــــن، يــــــا محمـــــد يــــــا غــــــالي
بــــــــــاقي في الحمّـــــــــــامِ، وفـــــــــــارق جَنَّـــــــــــابي

وفي يوم الزفاف تأتي قافلة العرس قادمـةً مـن بيـت العـريس، وفيهـا العديـد مـن النساء والبنات، فيُمسك أبو العروس ابنتـه مـن يـدها ويُخرجهـا لتركـب وتـسير إلى بيتها الجديد، وعادة ما تسير والدتها أمامهـا وفي يـدها إبريـق ملـيء بالمـاء المـزوج بالسكّر وترشّ أمامها وعلى طريقها، حتى تكـون خطواتهـا حلـوة مباركـة وحياتهـا هانئة سعيدة، وتغني النساء في هذه الزَّفّة وهن يُحِطن بالعروس ويُثنين علـى والـدها الذي أكرمهن وأكرم أهل العريس وأخرج لهـم تلـك العـروس الجميلـة لتـسير معهـم وتحلّ ضيفةً عزيزةً عليهم. ومن أغانيهن في هذه المناسبة:

يخْلِـف[1] علــى أبــو جمــال، بــدال الخَلَـف خَلَفـين
طلبنــا النـــسب منــــه، أعطانــا البنـــات الثنتيـــن

* * *

يخلـــف علـــى أبـــو محمـــد، يخلـــف عليـــه بــالأوّل
طلبنــــا النَّـــسَب منـــــه، أعطانــــا غـــزال مــصوّر

* * *

يخلـــف علـــى أبـــو أحمـــد، بـــدال الخلـــف بالميّـــهْ
طلبنــــا النـــسب منـــــه، أعطانـــا البنـــت النـــشميةْ

(١) – يخلف: يخلفه الله بخيرٍ مما عنده.

يخلـــف علـــى أبوهـــا، قَـــدّ مـــا رَبَّاهـــا

ميـــــتين لـــــيرة مـــــن الـــــذهب أعطاهـــــا

* * *

يخلـــف علـــى أبوهـــا، قَـــدّ مـــا خَلَّفهـــا

ميـــــتين لـــــيرة مـــــن الـــــذهب لَبَّـــــسها

* * *

وعندما تصل العروس إلى بيتها الجديد، تملأ يدها بالحناء المعجون وتلصقها فوق الإطار العلوي للباب، وكأنها بذلك تضع بصمتها على ذلك المكان، لتؤكد أنها أصبحت فرداً من أفراد هذا البيت، وأن هذا الباب هو لها، وسوف يكون لها دورها في ترتيبه ووضع لمساتها الخاصة عليه وإبراز شخصيتها من خلاله، وتدخل مجموعة من النساء إلى غرفة العروس ليرتبن أغراضها وما حملته معها من بيت أبيها، ويغنين لها في هذه المناسبة:

الــوادي الــوادي، مَــشِّيها يــا محمــد، الــوادي الــوادي

ذهــب رشَــادِي، لَبِّــسها يــا محمــد، ذهــب رشــادي

* * *

عالميَّـــهْ المَيَّـــه، مَـــشِّيها يـــا محمـــد، عالميَّـــهْ المَيَّـــه

أســـاور حَيّـــة، لَبِّـــسها يـــا محمـــد، أســـاور حَيّـــة

* * *

عَ حْمُـــول القهـــوة، لأرمـــي قفايـــا، عَ حمـــول القهـــوة

ابـــشري بـــالنخوة، يـــا ميمـــة جمـــال، ابـــشري بـــالنخوة

* * *

عَ حمـــول الـــرزِّ، لأرمـــي قفايـــا، عَ حمـــول الـــرزِّ

ابـــشري بـــالعزِّ، يـــا ميمـــة جمـــال، ابـــشري بـــالعزِّ

* * *

عَ حمـــول الـــسكّر، لأرمـــي قفايـــا، عَ حمـــول الـــسُّكَّر

ابـــشري بالعـــسكر، يـــا ميمـــة جمـــال، ابـــشري بالعـــسكر



أغاني الأطفال

للأطفال في صحراء النقب أغانيهم الخاصة التي تتسمُ بالبراءة والعفوية، وتُعبّر عن عالمهم الطفولي الجميل، فهم في موسم الشتاء يغنّون للمطر فيخرجون خارج البيوت حتى تبلّلهم حبات المطر الأولى، وقطراته التي تتساقط على وجوههم وتبلّل رؤوسهم وثيابهم، وهم يرقصون لهذا الوافد الكريم الذي تتأخر إطلالته في كثيرٍ من المواسم، وهم يطلبون من المطر أن يزداد ويشتدّ حتى يسقي الحقول العطشى والمزارع الظمأى فيقولون:

امطـــــري وزيـــــدي　　　بيتنـــــا حديـــــدي
بيـــت جـــدي شُـــقّة　　　لأركـــب عليـــه وأمُقّـــه

وهم يؤكدون للمطر بأنه مهما كان غزيراً فلن يؤثر على بيوتهم لأنها من الصفيح القويّ الذي يصمد أمام عصف الرياح واشتداد المطر، بعكس بيت الجدّ المصنوع من شِقَاق الشَّعْر[1] التي تَطْرَى وتلين من ماء المطر، وفوق ذلك يريد الأولاد أن يرقصوا عليها حتى تتفكّك وتتمزق:

بيـــت جـــدي شُـــقّة　　　لأركـــب عليـــه وأمُقّـــه

أما عندما تشرق الشمس وتكفّ الأمطار عن الهطول فيخرج الأولاد في ساعات الصباح ليعبروا عن فرحتهم، وكثيراً ما يطاردون أسراب النمل المتطاير الذي تُصبح له أجنحة بعد سقوط الأمطار، ويغنّون فرحين:

---

(١) – هي القطع السوداء المنسوجة من شعر الماعز والتي يتكون منها بيت الشعر.

شَمَّــــــسَتْ شُمّيــــــسة	عَ دار أخـــــتي عيــــشة
عيــــــشة في المغـــــارة	ذبحــــت قـــط وفـــارة
أخـــتي عيـــشة بابـــا	بتلعــــب ع الربابـــــة

وفي الليالي المقمرة التي يتلألأ فيها البدر بضوئه اللامع وكأنه قرص من الفضة، يخرج الأولاد في ساعات الغروب ويغنّون لهذا القمر الجميل بقولهم:

يـــا قمرنـــا يـــا جـــدَع	يـــا مقَلّــــد بـــالوَدَع
بناتــــك خمــــسة ســـتة	يلعـــبن تحـــت الـــسكّة
وحدة شرارة، ووحدة نارة	ووحدة تشوشح للخُطّار[1]
والخُطَّـــار ودّهـــم حليـــب	والحليـــب مـــن البقـــر
والبقـــــر ودّه حـــــشيش	والحـــشيش مـــن الجبـــل
والجبــــــل ودّه مطـــــــر	والمطـــــــر مـــــــن الله
لا الــــــــــــه إلا الله	لا الــــــــــــه إلا الله

وكأنهم يقولون: أيها القمر الشهم يا من تتقلّد بالنجوم، ويا من تحيط بك الكواكب المتلألئة وكأنهن بنات يلعبن حولك، فتبدوا واحدة وهي تلمع كالشرارة، وأخرى تتوهج كالنار وثالثة كأنها فتاة تلوّح بيديها لعابري السبيل والضيوف حتى تقدّم لهم الاحترام والقِرَى.

(١) – تشوشح: تلوّح بيديها، والخطّار: عابرو السبيل، ومجازاً: الضيوف.

وفي مناسبات أخرى عندما تسقط سنٌّ من أسنان هؤلاء الأطفال الأبرياء، فإنهم يمسكون بتلك السن المخلوعة وينظرون نحو الشمس ويخاطبونها قائلين:

يا شمس يا شُمَّيسة، خذي سِنّ الحمار، وأعطيني سنّ الغزال

ثم يرمونها بقوة نحو الشمس، وهم يعتقدون بأن السنّ الجديدة التي ستنبت محلها سوف تكون أفضل من سنّ الطفولة التي خلعوها ورموها لتستبدلها لهم الشمسُ بخيرٍ منها.

أما الطيور وهي كثيرة في النقب فللأطفال معها قصصٌ وحكايات، فالجَمَامَة؛ وهي اليمامة، أو الحمامة البرية التي يسمعون هديلها على أغصان الأشجار، فهي لا تغني فرحةً كسائر الطيور بل هي تبكي أخاها قيساً وتطلب منه أن يقوم لتراه حياً يرقص ويمرح حولها، وتقول له:

يا قيس قوم، يا قيس قوم، صلي وقوم، صلي وقوم، يا جوختي يا جوختي.

والجوخ نوع من القماش الفاخر، وكأنها تقول له قم يا غطاء رأسي الفاخر الذي اعتز به، قم حتى لا تفوتك الصلاة، ولكن قيساً لا يقوم لأن صقراً انقضّ عليه وفتك به وتركه قتيلاً في غيابها، فتمرغت في دمائه وتلونت ساقاها بلون دمه الأحمر القاني، وأصبحت حمراء من بعده حتى يومنا هذا.

أما الكروان وهو ذلك الطائر الجميل، ذو العينين الصفراوين الواسعتين، والساقين الرفيعن الطويلين فلا يتركه الأولاد وشأنه بل يطاردونه ويحاولون الإمساك به، فيجري أمامهم فيطمعون فيه، وعندما تعييهم الحيلة يحاولون إقناعه ويغنّون له:

يا قَرَوَان لْبُود لْبُود، جَاك الراعي بالعمود

أي اختبئ وألْبد أيها الكروان لأن الراعي قادم بعصاه الغليظة إليك، حتى ينقضّوا عليه عندما يلبد، ولكن الكروان يطير بعيداً ويترك الأولاد يتحسرون على اصطياده.

أما البَرْقِي أو أبو عَوّاد هو طائر صغير يميل لونه إلى الرمادي وله بقعة سوداء في صدره، وذيله أسود كذلك، وهو يحركه باستمرار، وهذا الطائر شديد الحذر، وهو يعيش على الديدان الصغيرة والنمل، وكان للأطفال مغامراتٌ عديدة مع هذا الطائر، فهم يبنون له الفِخَاخ ويطاردونه ويركضون خلفه حتى يقترب من الفخّ، وكانوا يلجأون لطريقة يحتالون بها عليه ويرددون له أغنية خاصة علّها تستميله فيقترب من الفخ دون خوف، والأغنية تقول:

يا بو عوّاد، منك لَغَاد، على الميراد، دودة وقراد

وكثيراً ما يقع الطائر المسكين بين فَكّي الفخ وعندها لا ينفعه الحذر، وفي مرات أخرى يعود الأطفال يلهثون بعد أن يتركهم أبو عواد ويطير بعيداً ويختفي عن الأنظار.

أما طائر الدوري، أو "الدويري" كما يسمونه فهو طائرٌ محليّ معروف، يعيش قرب البيوت ويمكن مشاهدته طيلة ساعات النهار، وكان الأطفال يحبون اصطياده، فيضعون خبزةً في صيَّادة الفئران ويضعونها خارج البيت ليصطادوا بها ذلك الطائر المسكين، وكان كثيراً ما يقع بين فَكَّيْها فهو غير حَذِر كبقية الطيور الأخرى، ويروي الأطفال بأن الدوري كان قبل أن يصطادوه يسخرُ منهم ويقول:

أنا الدويري الدوَّار، ورِك مني يملا الدار

ولكن بعد أن اصطادوه لجأ إلى الحيلة، وأخذ يخاطبهم برقّة وضعف ويقول:

أنا الدويري وايش مني، طبخة عدس تغني عني

وكثيراً ما يطلق الأطفال سراحه بعد أن يرقّوا لحاله، وبعد أن يتيقنوا بأن ليس فيه من اللحم ما يُغري بصيده.

أما أولاد البدو والفلاحين فلهم نصيب من هذا الغناء، فأبناء البدو يسخرون من أولاد الفلاحين ويغنون لهم:

يـــا فـــلاّح يـــا طِيطِـــي	يــــا عِـــــرْق البَلِّيطِـــــي
مَيْتَـــــكْ في قِرْبتـــــك[1]	الله يقطَـــــع زرْعتـــــك[2]

فيرد عليهم أولاد الفلاحين بقولهم:

يــــا بــــدو يــــا زُطّ[3]	خيلكـــــــو بيتـــــــنُطّ
مَيْتَكـــــو في قِرْبتكـــــو	الله يقطَـــــع زرْعتكـــــو

وعندما يُفرغ كلّ طفلٍ ما بجعبته من الكلام يعودوا ليلعبوا سويةً وكأنّ شيئاً لم يكن.

(١) – القربة: وعاء من الجلد تحفظ فيه المياه.

(٢) – الزرْعَة: النسل.

(٣) – الزُّط: جمع زُطّي: وهو النوري، أو من لا أصل له.

الباب الخامس

الآلات الموسيقية عند البدو



الآلات الموسيقية عند البدو

الآلات الموسيقية عند البدو هي آلات قليلة وبدائية، نظراً لانشغالهم بمواشيهم وأرزاقهم، ولكن بالرغم من كلّ ذلك فهناك آلات موسيقية مختلفة أَلِفَها البدويّ وصنعها بنفسه، وعبّر بها عن مشاعره وأحاسيسه واصطحب بعضَها وهو يتنقّل مع قطيعه من تلٍّ إلى تلّ، ومن رابيةٍ إلى أخرى، وسامرَ بعضها وبثّها شجونه وهو يجلس وحيداً في ساعات خُلْوَته وفراغه. والآلات الموسيقية التي استعملها أهلُ البادية تُقسم إلى عدّة أقسام منها النفخيّة والوتريّة والإيقاعيّة، ونبدأ بالآلات الوتريّة وهي:

الربابة:



الربابة آلة موسيقية قديمة ذات وترٍ واحد عرفها العربُ في صحرائهم منذ عصورٍ بعيدة، وانتشرت بشكلٍ كبير حتى تكاد تجدها في كل بيتٍ من بيوت العربان، وكان البدويّ يلجأ إلى الربابة في ساعات راحته وهدوئه، ولذلك لم يصطحبها معه وهو يرعى أغنامه كما يصطحب الشبّابة.

ولم تكن الربابة آلة لهو ولعب عند البدويّ، بل كانت آلة يلجأ إليها في وحدته ليبثّ إليها همومَه وشجونه، وعندما يمر بقوسه على وترها اليتيم يُخرج صوتاً مبحوحاً كأنه قطعة من نشيج قلبٍ مكلوم.

وهو يداعبها بأنامله مرات ومرات حتى يستقيم لحنها، وتتهيأ نفسه عندها لتبوح بمكنوناتها، وهي النفس التي لوّعتها الصحراء بصمتها وسكونها، ويغني ألحاناً هادئة عميقة تخرج من أعماق نفسه فينساب اللحن مع نغم الربابة وكأنه قطعة من الأنين تنساب شيئاً فشيئاً.

وهو يشرح أنينه ولواعج نفسه ويبوح للربابة بهمومه وكأنها الصديق الوفي الذي يواسيه في شدَّتِه ويقف بجانبه في محنته وساعات ضيقه.

تلك هي الربابة بمفهومها الحقيقي عند البدو، ومن أجل ذلك يُعَلِّقها البدويّ في واسط بيته، وفي المكان الذي يجلس فيه في ساعات راحته، أو مع ضيوفه وأصدقائه.

وكم تناول الربابةَ ضيفٌ عابرٌ، أو صاحبُ حاجة ليعبِّرَ بها عما يجيش في نفسه بعد أن لم يجد الكلمات التي يعبّر بها، فيجد راحته وهو يمزج شكواه بأنين نفسه مما يجعل النفوس الأخرى ترقّ له وتهب لنجدته وتساعده في محنته وتفكّ أزمته وكربته.

إن اللحن لغة عالمية لا تستعمل الحروف، حروفها ذبذبات من المشاعر، وكلماتها هفهفات من العواطف ولواعج القلوب، ومن أجل ذلك يكون التعبير بها أسرع إلى القلوب وأقرب إلى النفوس فتتغلغل بها لا تنتظر دليلاً ولا ترجمان.

والصحراء تجعل الإنسان أكثر انطوائيةً بسبب الوحدة والعيش بشكل انفراديّ، فنرى البدويّ أقرب إلى نفسه من أي شيء آخر، وعندما ينفرد بربابته ينطلق ذلك الكبت لينساب ألحاناً شجيّة معبّرة خالية من كل تصنّع أو تكلّف.

هذه هي لغة الصحراء، وهذا هو صدق أهل الصحراء، وهذه هي فطرتهم التي جُبلوا عليها.

وقد غنّى البدويّ على ربابته ألحاناً مختلفة منها الهجيني والرِّزْعَة والدلعونا والأشعار الشعبية، ولكنها اتسمت في معظمها بطابع الحزن والأسى، وظلّت تدور في فلك الحزن والانطوائية، ذلك الطابع الذي فرضته الصحراء ببيئتها وظروفها وبصمتها وسكونها.

وقد صنع البدويّ آلته من الأدوات البسيطة المتوفرة لديه، فصنع هيكلها وقوسها من خشب الأشجار التي يصادفها في طريقه، وصنع طارتها من جلد الماعز أو الغزال، أما وترها ووتر قوسها فهو من سبيبِ فرسه، واللبان الذي يمسحه على وترها فيجعله خشناً عند احتكاكه بوتر القوس أخذه من دموع أشجار السرو أو الصنوبر.

وأجزاء الربابة بشكل أكثر تفصيلاً هي:

هيكل الربابة:

هو مربعٌ خشبي يميل إلى الاستطالة مثقوب من ضلعيه القصيرين حتى يسمح بمرور عصا طويلة هي عنق الربابة التي يركّب عليها الوتر الوحيد.

طارة الربابة:

هي الجلد المشدود على جانبي الربابة من الأعلى والأسفل، ويُشدّ هذا الجلد بشكل جيّد بواسطة خيوط متينة تُشبك في أطرافه وتشدّ الجلد الأعلى إلى الجلد الأسفل، وقد تستعمل دبابيس خاصة أو رَزَّات تغرز في الجلد وخشب الطارة وتؤدي نفس الغرض.

السَّبِيب:

هو شعر ذيل الحصان أو الفَرَس الذي يُصنع منه وتر الربابة ووتر القوس كذلك، وتؤخذ مجموعة من هذا الشعر وتجمع إلى بعضها وتُربط من أطرافها بخيط متين ليتكوّن منها وتر القوس أو الربابة.

الكَرَّاب:

هو المشدّ الذي يكون في الطرف البعيد من عصا الربابة، ووظيفته شدّ وتر السبيب إلى الدرجة المطلوبة، والفعل كَرَب يكْرُبُ بمعنى شَدَّ يشدّ.

القوس:

يصنع في الغالب من عود الرمان أو الخيزران لمرونة هذه العيدان وطراوتها، وقد يصنع من عيدان أخرى تؤدي نفس الغرض. وللقوس اسمٌ آخر هو السَّوَّاق، لمروره جيئةً وذهاباً على وتر الربابة.

الغزال:

هي قطعة رفيعة من الخشب توضع تحت الطرف السفلي لوتر الربابة، فترفعه عن الطارة حتى لا يلامسها عند العزف والضغط عليه.

المخدّة:

هي قطعة قماش صغيرة توضع تحت نهاية الوتر عند آخر ساق الربابة، وظيفتها كوظيفة الغزال في الجهة المقابلة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الربابة لا تُخرج صوتاً إلا بعد مسح وترها ووتر قوسها بحصى اللبان، وهو حصى يتخذ من دموع أشجار الصنوبر أو السَّرو.

السمسمية:



هـي آلـة وتريـة ذات خمـسة أوتـار معدنيـة رفيعة، يُضرب عليها بريـشة كما يـضرب علـى العود ويبدّل عليها بالأصابع حتى يخرج اللحـن الـذي يريـده العـازف. صـوتها رقيـق وملائـم للأعراس والمناسبات السعيدة.

والسمـسميّة أكثـر مـا تـستعمل عنـد البـدو في سـيناء، ولم تكـن تـستعمل في النقـب، ولكنهـا انتشرت بعد ذلك حيث جاءت مع القبائل الذين يعـود أصـلهم إلى سـيناء. ومـا زال بعضهم يصطحبها في سيارته ويخرج بها إلى الخلاء ويعزف عليها حتى تروق نفـسه ويهدأ باله مبتعداً عن هموم المادة وضغوط الحياة المختلفة.

أما الآلات النفخية فهي:

الشبّابة:

هي آلةٌ موسيقية نفخيّـة عبـارة عـن أنبوبـةٍ مُجَوَّفـة مـن البُوص أو المعدن، وطولها نحو نـصف مـتر أو أقـلّ بقليـل، ولها ستة ثقوب تبعد عن بعضها بمقدار ما يبعد الإصبع عن الآخر أو أكثر بقليل، ويُنفخ في طرف فتحتها العليا فتُخـرج

صوتاً يُعَدّلهُ العازفُ بتحريك أصابع يديه ليخرج له اللحن الذي يريده.

والشبَّابة آلةٌ بسيطة، وربما كانت أقدم آلة موسيقية عرفها الإنسان، فنفخ فيها ألحانه وأنغامه وسكب فيها عصارة روحه ليبوح للريح والصحراء بأسرار نفسه ومكنونات قلبه.

وبداية العزف على الشبَّابَة لم تكن بحاجة إلى علمٍ وتعليم، فهي عبارة عن صفيرٍ يُخرجه الإنسان بأن يزمّ شفتيه وينفخ من أنفاسه هواءً يدفعه ويُحرِّكه بطرف لسانه فيخرج باللحن الذي يريد، ثم أصبح ينفخ هذا الصفير في أنبوبة من البوص ثقبها ستة ثقوب وبدّلَ عليها بأطراف أصابعه حتى استقام له اللحن وتهيأ له النغم الذي يريده.

والشبَّابة صديقةٌ للراعي فهو يحملها في يده، أو يضعها تحت حزامه، ويُخرجها ليُشَبِّبَ بها وينفخ فيها ما يطيب له من الألحان فلا يشعر بالملل وهو يقضي الساعات الطوال في رعي المواشي بين تلال الصحراء وهضابها، وقد يستعملها كعصا يطرد بها قطيعه أو يدفعه ويسوقه بها.

ولا يقتصر استعمال الشبابة على الراعي فقط، فهي تستعمل كذلك في مناسبات الأعراس حيث يخرج أحد الشبَّان الذين يتقنون العزف عليها، ويتحلّق حوله عددٌ من أترابه ويأخذ في عزف الألحان الشجيّة على شبابته، بينما يُغنّي شخص آخر على نفس النغمة، ويقوم الآخرون بالسحجة والتصفيق على الأكفّ.

ومن هنا نرى أنّ الشبابة تستجيب لألحان كثيرة متنوعة، ويمكن أن يتنقّل بها العارفُ بفنونها من لحن الدلعونا إلى أبو ردَيِّن، وإلى الموّال العاطفي أو اللحن الهاديء الحزين.

وإذا تأملنا في كلمة شَبَّبَ يشبِّب تشبيباً، والتي تعني تغزّلَ بالمرأة، فهي كما يبدو أُخذت من الشبّابة، حيث كان الراعي يطلق ألحانه لتسمعه راعية في جهة مقابلة فيشبِّب لها، ويستلهم منها ألحانه وأنغامه، والرجل أبلغ ما يكون حين يتكلم أمام المرأة، فكيف إذا كان يغني لها فهو يكاد يذيب قلبه مع أنغام شبابته، فيبدو لي أن التشبيب من الشبابة وأن هذه العُصَيَّة من تلك العصا.

وكانت الشبابة تُصنع في البداية من البوص، ثم أصبحت تصنع فيما بعد من أنبوب من الألمنيوم لخفته وسهولة ثقبه، أو من معادن أخرى كالحديد والنحاس، ثم صنعت بعد ذلك من أنبوب من البلاستك الصلب المجوّف.

وما زالت الشبابة صديقة للراعي، وإن كان صوتها قد بدأ يبتعد عنا شيئاً فشيئاً بسبب قلة المواشي، وانتشار أجهزة الراديو الصغيرة التي يحملها الرعاة ويتسلّون بها، وإن كانت هذه الأجهزة لا يمكنها أن تسدّ فراغ الشبابة أو تحلّ محلها، ويظلّ حنين الراعي إلى شبّابته لا يتغيّر مهما تعددت الأجهزة أو تغيّرت ظروف الزمان.



المقرون:

هو نايٌ ذو أنبوبتين يُصنع من عيدان البُوص المجوّفة، وهاتان الأنبوبتان متوازيتان ومقرونتان الواحدة منهما بالأخرى بخيوط متينة تُلَفُّ على القصبتين من الأسفل والأعلى، وقد جاء اسم المقرون من قَرْنِ القصبتين ببعضهما كما ذكرنا.

وللمقرون كما للشبّابة ستة ثقوب في كل قصبة من قصباته، تبعد عن بعضها بمقدار ما يبعد الإصبع عن الآخر أو أكثر بقليل.

أما أجزاء المقرون فهي:

القَصَبَات: وهما الأنبوبتان الطويلتان المثقوبتان والمقرونتان ببعضهما كما ذكرنا.

العَزَبَات: وهما أنبوبتان قصيرتان رفيعتان بطول ٦ أو ٧ سم، تُثبّتان في أعلى القصبتين، وتسمى الواحدة منهما عَزَبَة، والجمع عَزَبَات، والعَزَبَة في لغة العامة هي المرأة الثيّب التي لا زوج لها.

البُنَيَّات: هما زمّارتان رفيعتان من نفس عود القصب تُقْطع الواحدة منهما من فوق عقدة العود فتكون مغلقة من الأعلى ومُجوّفةً من الأسفل، وتُشقّ في طرفها من الأعلى فيما يشبه اللسان، وتوضع أحياناً شعرة تحت أعلى هذا اللسان حتى تسمح بمرور الهواء وخروج الصوت والصفير.

والبْنَيَّات جمع لكلمة بْنَيَّة وهي البُنَيَّة، وهي هنا تصغير لكلمة بنت، وتُربط كلّ واحدة من الزمارتين بخيط يُشْبكُ في قصبتي العَزَبَات للحفاظ عليهما من السقوط والضياع.

ويتم العزف على المقرون بإدخال الزمارتين إلى داخل الفم والنفخ فيهما، والتبديل بالأصابع وتحريكها حتى يستقيم اللحن ويصل العازف إلى النغمة التي يريدها.

والعازف على المقرون بحاجة إلى نَفَسٍ طويل، أما من يستطيع أن يتنفّس أثناء النفخ ودون أن يقطع العزف فيقال عنه إنه "يعرف يَرُدّ على المقرون"، وهناك نغمة تشبه تكرار كلمة "بلْ بلْ" كان أبي عندما يسمعها يقول لي: انتبه انه الآن يَرُدّ على المقرون أي يتنفّس أثناء النفخ.

ونغمة المقرون أقرب إلى الطرب منها إلى الألحان الأخرى، ولذلك نراهم يستعملونه في مناسبات السَّمَر والأعراس، وإن كانت لا تخلو بعض ألحانه من مسحةِ حزن ينتزعها العازف من أعماقه ويذيبها في ألحان المقرون الهادئة.

اليرغول:

يشبه المقرون في جميع أجزائه إلا أنّ له عُصَيَّة من البوص تُدخل في الطرف السفليّ لإحدى الأنبوبتين المثقوبتين. وتساعد هذه الأنبوبة على الرّدّ على اليرغول واستمرار اللحن دون انقطاع، وكذلك تُعطيه نغمة خاصة تختلف قليلاً عن نغمة المقرون.



والآلات الإيقاعية هي:

الطبلة:

هي أداة إيقاعية تستعملها النساء فقط في مناسبات الأعراس، وكانت تُصنع من الفخَّار وتُشدّ عليها طارة من الجلد فيُحدث الضرب عليها إيقاعاً خاصاً، وفي حالة عدم وجود طبلة كانت النساء يستعضن عنها بتنكة معدنية يضربن عليها فتحدث إيقاعاً أقرب إلى الصخب منه إلى الطرب.

وتستعمل النساء أيضاً الفناجين لإحداث إيقاع معين، فعندما تخرج إحداهن للرقص تحمل بين أصابعها فناجين تدقها ببعضها دقاً خفيفاً فتحدث إيقاعاً يشبه إيقاع الدفّ وخشخشته.

مصادر ومراجع

١. أخبار النقب، العدد (٣٢٢)، ٢٠٠٤/٣/١٥، أسبوع الفرح – صالح زيادنة.

٢. أخبار النقب، العدد (٣٤٧)، ٢٠٠٥/٢/٢٨، الآلات الموسيقية عند البدو – صالح زيادنة.

٣. أخبار النقب، العدد (٣٤٨)، ٢٠٠٥/٣/١٤، الغناء وأنواعه عند البدو – صالح زيادنة.

٤. أخبار النقب، العدد (٣٤٩)، ٢٠٠٥/٣/٢٨، الغناء وأنواعه عند البدو – تتمة– صالح زيادنة.

٥. الحدث، العدد (١١٧)، ٢٠٠٩/١٢/٣٠، من قصص الطيور في تراثنا الشعبي– صالح زيادنة.

٦. الحدث، العدد (١٣٠)، ٢٠١٠/٠٣/٣١، جماليات الغناء الشعبي – صالح زيادنة.

٧. المأكولات الشعبية في النقب، صالح زيادنة، الطبعة الأولى، مطبعة الرابطة، الخليل، ٢٠٠٨م.

٨. المرأة العربية في النقب، صالح زيادنة، الطبعة الأولى، مطبعة الحكيم، الناصرة، ٢٠٠٩م.

٩. ألوان من التراث البدوي، موسى الحجوج، ٢٠٠١.

مصادر ميدانية ومقابلات:

١. السيد إسماعيل عودة الزيادنة وزوجته رحمهما الله، (والدا المؤلف).

٢. السيدة أم نعيم رحمها الله، الشقيقة الكبرى للمؤلف.

٣. السيدة أم أحمد، الشقيقة الصغرى للمؤلف.

مقابلات شخصية في بيت المسن في رهط مع:

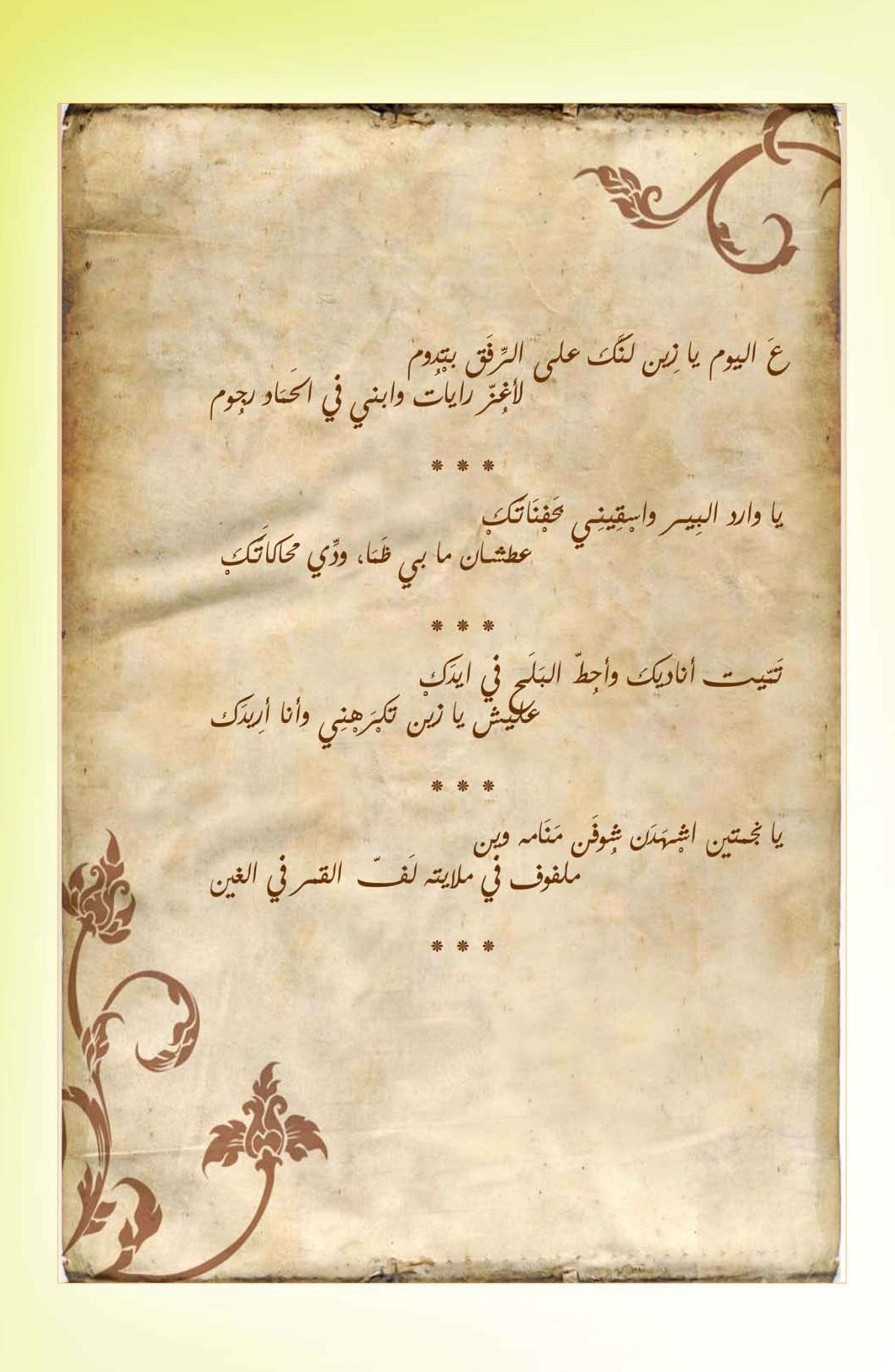
٤. السيد أحمد عبد النبي أبو شهاب (أبو جميعان) رحمه الله.

٥. السيد سعود بركات العبيد (أبو يوسف).

٦. السيد عيد سليمان البركات رحمه الله (أبو سليمان).

٧. السيد محمد سليمان القريناوي (أبو نادر).

المحتويات



عَ اليوم يا زِين لنَّك على الرِّفَق بتْدُوم
لأعْزِّ رايات وابني في الحَسَاد رجُوم

* * *

يا وارد البِير واسْقِينِي بحَفْنَاتك
عطشان ما بي ظَمَا، ودِّي محاكاتَك

* * *

تَمّيت أناديك وأحِطّ البَلَح في ايدَك
عليش يا زين تكْرَهنِي وأنا ارِيدَك

* * *

يا نجمتين اشْهَدَن شُوفَن مَنَامه وين
ملفوف في ملايته لَفّ القمر في الغين

* * *